

KARAY

BINT YAZID

Princeton University Library



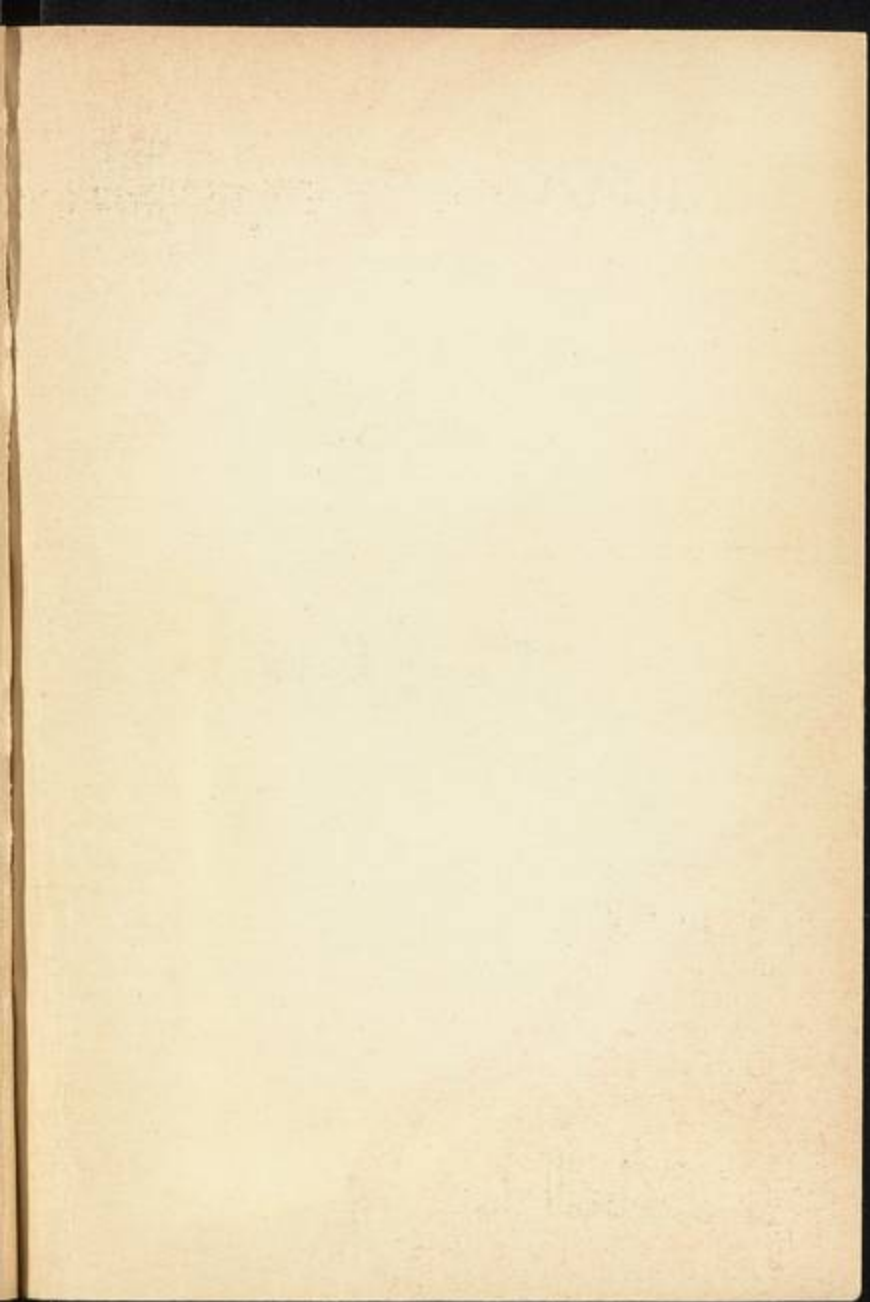
32101 075615136

سامي الكيالي

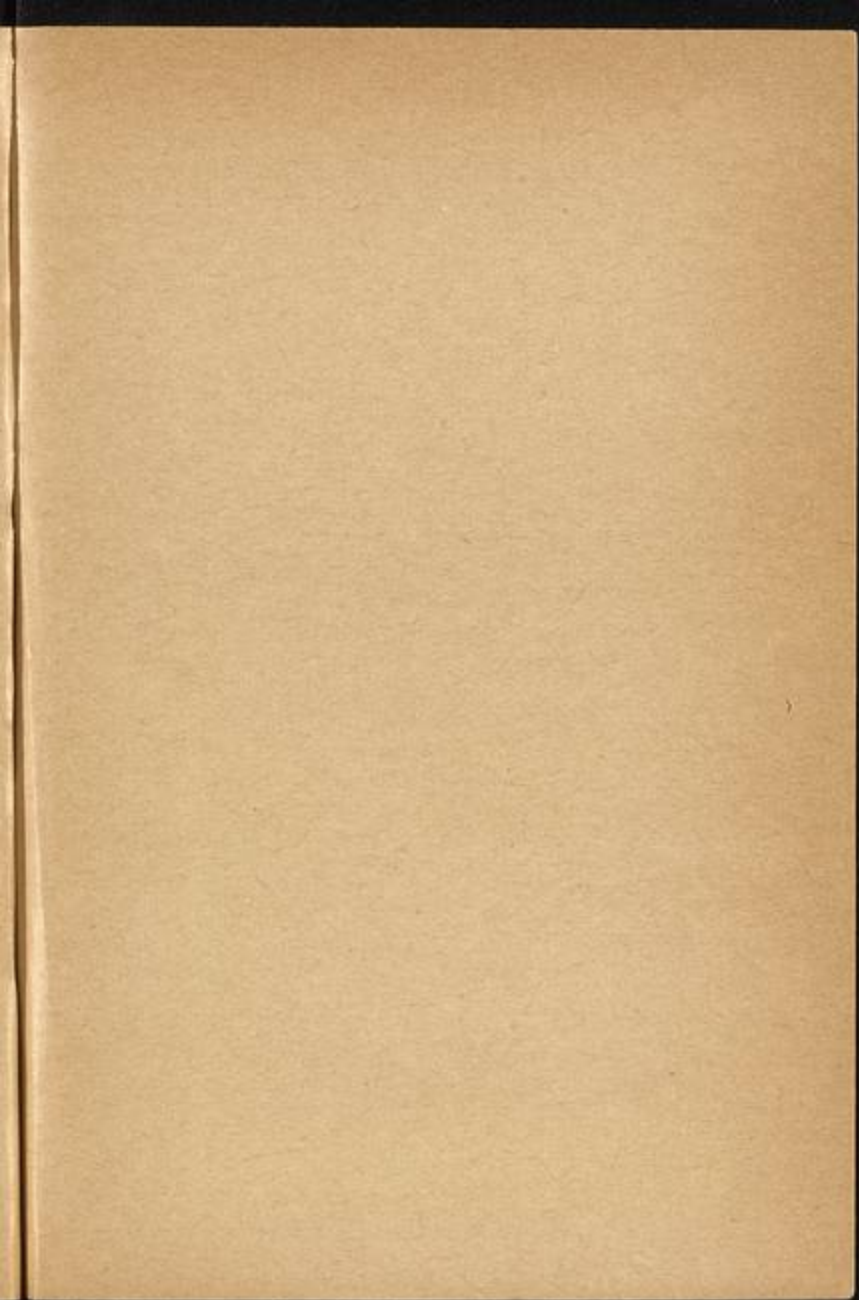
اقرأ

بنت يزيد

دار المعارف بمصر



بنتِ یزید



Karay, Refik Halit

سامي الكيالي

بنت يزيد

Bint Yazid

١٥٥ اقرا

دارالمعارف بمصر

اقراء ١٥٥ - نوفمبر سنة ١٩٥٥



جميع الحقوق محفوظة
لدار المعارف بمصر

هذه قصة من روائع قصص الأدب التركي المعاصر ،
دبج فصولها الكاتب الصحفي الأديب الأستاذ رفیق خالد ،
أحد بناة الأدب التركي الحديث ، وقد عاش المؤلف في
هذه الجواء التي رسم صورها وأبدع ألوانها وشهد بعض حوادثها ،
فجاءت قطعة من نفسه وصورة حية من أدبه وتصويراً رائعاً
لكثير من أحداث الحياة وملابساتها .

وإذ خلا أدبنا أو كاد من نماذج مختارة من الأدب الروائي
التركي فقد رغب صديقي الدكتور إسماعيل أحمد أدهم أن
نعمل على نقلها إلى العربية . . . وما كدنا نمضي حتى كانت
مأساة انتحاره ، فصدمة تلك الصدمة الأليمة التي أفقدتنا عنصراً
حيماً كان له شأنه في حياتنا الفكرية . وقد توقفت آنئذ عن
عن الترجمة . ثم بدا لي أنه لا يصح أن يحرم القارئ العربي
من هذه الرواية الفذة ، وقد بقي منها فصلها الأخير ، فأقدمت
على إتمامها . وهأنذا أنشرها وفاءً لذكري لصديقي الراحل من
جهة ولكيلا يحرم القارئ العربي — من جهة ثانية — ثمرة جهد
بذله الفقيده في ترجمة هذا الأثر الأدبي النفيس .

سامي الكيالي

2070

.513

.318

هنالك نفر يرغبون في أسفارهم أن يتحدثوا للوهلة الأولى مع أول من يقابلهم . يتداخلون مع السيدات ، ويتنادرون ، ويلاعبون الأطفال ، ويتشاكون مع الشيوخ ، ويظهرون صلاتهم بكل شيء . أما أنا فلم أكن من هؤلاء !

وقد تكون أخطار البحار فيما مضى والضيق الذي يورثه ركوب البحار مما يستوجب ذلك لأبناء العصور الماضية ، حيث كان المسافرون عادة ينزلون في ركن ضيق من السفينة غير خالصين من خشونة المكان وتلاعب اليم بالسفن ، وما يتخلل السفر من اهتزازات تورث الاضطراب . لهذا كانت جموع المسافرين تضطر للاجتماع في ركن من أركان السفينة ، مستمدين من روح الجماعة القوة على مغالبة الصعاب ، واجدين في اجتماعهم سبيلاً للتفريج عن ضيق نفوسهم .

واليوم صارت وسائل السفر الحديثة — بما تحوى من عناصر الراحة التامة — تنقذنا من متاعب التعارف بمن

لا نحب ولا نرغب في تعارفهم ، لهذا لم أكد أصعد إلى الباخرة
 التي كانت على وشك الإبحار من ميناء مارسيليا في جو عليل
 يحاكي أجواء الربيع ، حتى ذهبت تواءاً للقمرة التي حجرتها
 وأودعتها حقائبي ، وخرجت وحدي لظهر الباخرة أقطعها
 ذهاباً وإياباً ، مسترسلاً في أحلامي ، شاعراً بروح الاطمئنان
 يغمرني فيورثني الدعة . ولم يكن هنالك من شيء يقدر على
 أن يقض من مضاجع الاطمئنان في نفسي ، ولم يكن لي
 حسرة على فراق فرنسا ، لهذا كانت نظراتي ترتد عن صفور
 الشاطئ الفرنسي التي أخذت تختفي وراء الأفق جامدة
 دون أن تجيش بإحساسات أو عواطف رقيقة . وكنت أقطع
 الوقت بالسير ، وبالسير وحده بدون أن يكون لي وجهة معينة ،
 فكنت أسير كيفما ساقنتي قدمي ، وفجأة تقابلت بغادة
 تسربت بالبياض وكانت ممشوقة القد ، أميل إلى الطول ، تسير
 مثلي بخطوات وثيدة كيفما اتفق دون أن تلتني نظرة اهتمام
 للمحيط الذي يكتنفها ، ولفت نظري منها سمرة خفيفة تمشت
 في أطرافها ووجهها ، سمرة تحاكي سمرة حبات القمح التي
 كومت بعد الحصاد وتركت تحت أشعة الشمس الذهبية
 الغاربة ، أما وجهها فكان جميلاً والظلال التي به لست أدري

بماذا أشبهها؟ قد تكون أشبه بالأطياف أو بأضلال الربيع
الوارفة عند الغروب. أما عيناها فكانتا تحت أشعة الشمس
أشبه ما تكون بحلقات زرقاء تحاكي زهر القرنفل قد انطوت
على دائرة من الكهرمان أخذت تلمع وتشتع ألواناً وأطيافاً تغمر
ما حولها.

مضت العادة ولم تظهر اهتماماً لرؤيتي... أما أنا
فحاولت أن أتصنع عدم الاهتمام، غير أنني كنت أختلس
النظر إليها كلما حانت الفرصة. وشعرت بإحساس غريب
يدفعني لأن أستوقفها وأجيل النظر في وجهها وشعرها الأسود
الحالك وعينيها الزرقاوين.

وبينما أنا سابح في إحساساتي وتخيلاتي رأيت فجأة منظرًا
عجيباً: رجلاً تجلج بالسواد، متوسط القامة، مرتدياً جبة
أو ردنكوتاً. كان أقرب ما يكون لشيخ أو قس من الذين
سمحت لهم قوانين اللباس في تركيا بارتداء اللباس الديني
الكهنوتي. غير أن فارقاً كبيراً يمكنك أن تحسه للوهلة الأولى
بينه وبين القسس والشيوخ في تركيا، فإنه وإن اتفق معهم
في مظهر اللباس والشكل العام إلا أن لحيته التي تبدو وكأنها

مطرزة ، معقدة معقوفة عقصات كانت تجعله أقرب ما يكون إلى كاهن آشوري من كهان ذلك العهد الغابر منه إلى قسس وشيوخ اليوم .

أخذ هذا الرجل يسير بخطوات وثيدة وعليه مظاهر الاحترام حتى اقترب من الغادة التي استوقفت نظري وأوماً بإيماءة احترام ، وانحنى أمامها وتشابكت أصابعه واستقرت على وسطه ، فكان في مظهره أشبه ما يكون بمظهر الإنسان في صلاته . وأخذ يتحدث إلى الغادة الحسنة بلغة لم تصل إلى سمعي مقاطعها حتى أستطيع تمييزها . وأخرج من جيب جلاببه الداخلي بعض الجرائد فمدت هي يدها وأخذت واحدة ألقنت نظرة عليها . ولفت نظري من الصحيفة أنها تحمل اسم « الماتينو » ففرقت في تأملاتي ورجحت أن تكون هذه الجريدة تصدر باللغة الإسبانية . وفجأة أخذت أعنف نفسي على استرسالها في هذا الموضوع ومضيت أسير دون أن اهتم بالنظر إلى الحسنة الأندلسية أو الكاهن الأشوري . غير أني فجأة انتفضت عندما انتهى إلى سمعي عبارة قالتها الغادة التي كانت تطالع صحيفة إسبانية للكاهن الذي كان يتراجع من أمامها متأهباً للانصراف . كانت العبارة باللغة الكردية : إحدى اللهجات

الشائعة في ولايتنا الشرقية ، وكنت قد تعلمتها في أثناء وجودي في هذه الولايات المتطرفة نحو الشرق من آسيا الصغرى . وكان معنى عبارتها : قابلني بعد ساعتين .

غرقت في تصوراتي وبمخيلاتي وأخذت أبحث عن الصلة التي تجعل عادة إسبانية تعرف اللغة الكردية فتحدث بها . وكانت الدهشة التي استولت عليّ عند سماعي تكلمها بالكردية مما استوقف نظرها واسترعى انتباه محدثها ، فانتهت نظراتهما إلىّ فاضطرت أن أبتعد عنهما وأتركهما بمفردهما .

كان هذا الحادث سبباً لتشتيت أفكارى وإثارة اهتمامي . وكنت أحب أن أقضى سفرتي في دعة واطمئنان ، غارقاً وحدي في أفكارى وتأملاتي ، لا يقطع صفوها شيء ولم تكن هذه الوقائع لتمرّ دون أن تستوجب اهتمامي . . . لقد كنت أخطو خطواتي الأولى من سفرى حين فوجئت بهذا المنظر المسرحي : فتاة إسبانية تتحدث الكردية . وفجأة افتر ثغرى عن ابتسام ، حينما تذكرت أنني على وشك الانغمار في مأساة لا أعرف قرارها .



لم تبد العادة الإسبانية على مائدة الظهر ، وفجأة لمحتها قبيل الغروب على ظهر الباخرة ، وكانت تتجاذب الحديث

مع ربّان الباخرة . وخيل إلى أن حديثهما يجرى حولي ،
 وكنت أعرف الربّان من قبل ، حين كان يشتغل بالباخرة
 « لوتس » التي أغرقت سفينة أخرى في حادث اصطدام ،
 وكنت أنا من أعضاء لجنة التحقيق فتعرفت إليه وقتئذ .

مضيت بعد فترة إلى غرفة الربّان ، وكان بابها موارباً ،
 فلما رأني تحرك من مكانه وتقدم نحوي هاشماً فقلت له :
 لقد أتيتك من أجل أن أستقي بعض المعلومات ، وأمل ألا
 أكون قد أقلقتك بمجيئي . فنظر إلى وجهي وابتسم قائلاً :
 أعن غادة حسناء ؟ !

فقلت : ليس هنالك ما يمكن أن يقال عن فراستك .
 فأجاب : ليست المسألة مسألة فراسة ، لأن تلك التي
 تريد أن تستقي عنها بعض المعلومات كانت هنا تستقي بعض
 المعلومات عنك . لقد قلت لها إنك من أعضاء المجلس الوطني
 الكبير في تركيا الحديثة ، وإنك من أعضائها البارزين ذوى
 النفوذ الكبير . شاركت الغازي في رفع السلاح لتحرير تركيا .
 وقد أظهرت اهتماماً كبيراً وتقديراً .

فقلت : ليس لك إلا أن تثيرني من جهتها ! وأرجو ألا
 تكون معلوماتك قائمة على عنصر المبالغة ، فلست اليوم من
 أعضاء المجلس الوطني بتركيا كما قلت لها . ولقد انصرفت

عن السياسة أخيراً .

فجذب الربآن من أمامه درجاً أخرج منه بطاقة وقرأ
 لي منها : الآنسة زيلي ديلا يزدى ، ولدت عام ١٩١٠ ،
 بمدينة مندوذا بالأرجنتين . ولقد صحبها حتى الباخرة في مارسيليا
 قنصل الحكومة الأرجنتينية العام . وهم يتحدثون عنها بأنها غنية
 ومفرطة في غناها . ولقد سمعت أنها ستذهب إلى بغداد ، وهي
 تحسن الفرنسية .

قلت في نفسي : « وأيضاً تعرف الكردية » وتوجهت
 إليه بحديثي : نعم ، إنى أشكرك ولكن هنالك نقطة أريد أن
 أجلبها . . . هل سبق لها أن ذهبت إلى الشرق ؟

فأجاب : كلا ، كانت منذ هنيهة تتحدث إلى ، وتقول إنها
 غادرت أمريكا للمرة الأولى ، وإنها ترغب في التعرف إلى أحد
 المسافرين الذين لهم معرفة مستفيضة عن سوريا . وقد أردفت
 رغبته بأن توجهت إلى لأجد لها . . .

فقلت : ألا تقدمنى إليها ؟

فأجاب : بكل سرور ، وأظن أنى بذلك أحقق لها رغبة
 يجيش بها صدرها .

ولقد حملت عبارته الأخيرة على لطفه الفرنسي ، وغرقت

في تأملاتي عن هذه الغادة التي ولدت بالأرجنتين ، ولم تغادر أمريكا من قبل . والتي تعرف الكردية وتتحدث بها . وأخذ هذا الموضوع يشكل في ذهني مع الزمن لغزاً ! فلو تحدثت العربية لكان في الإمكان تصور ذلك ، لأن بالأمريكتين وخاصة بالأرجنتين وجنوب أمريكا جاليات سورية ولبنانية استقرت هنالك ، ولها جرائد تصدر بالعربية ، والمطابع العربية تخرج من المهجر الكثير من الكتب . ولكنها تتحدث الكردية ، وهنا موضع الغرابة والدهشة ؟

وأخذ الغروب يضع نهاية لمنظر البحر الذي كان يبعث في قلبي الكآبة ، وبدت المياه ساكنة والظلال متناثرة والأطياف من حول الباخرة تتألق على صفحة الماء منعكسة عن أضواء الباخرة . كانت ساعة يغمر الإنسان فيها الهدوء والدعة والراحة .

وكنت أقطع ظهر الباخرة مع الربان ، وبدت لناظرنا « زيلي » الغادة الحسنة وقد تسربت بالبياض كالصباح . وتقدمت إلينا وقالت : لو سمحت لي أيها السيد . . .

وظهر زميلي الربان في موقف لا يحسد عليه : يكد ذهنه ليتذكر اسمي بلا جدوى . وأخيراً قررت أن أسارع إلى إنقاذه بذكر اسمي ، ولكن يظهر أن الغادة الأرجنتينية سبقتنا

فقالت : ألسنت السيد حكمت على !

فأحيت قامتي وكلى حيرة وعجب ، وضغطت على يدها التي مدتها بحمارة وقوة . وتقابلت نظراتنا . ولست هي أن نظراتي إليها طالت عن المعتاد فأسبلت عينيها ، فبدت رموشهما في ظلالهما آية الإبداع . وقطعت نظراتي إليها بحديثي الذي بدأته دون أن أتقدم بالاستفسار عن اسمها باعتبار أن معرفتي لاسمها طبيعية .

قلت : لكم أخشى ألا يكون في مكنتي أن أزودك بمزيد من المعلومات عن سوريا ، لأن الوضع الإداري في سوريا قد تغير ، وحدثت تغييرات جديدة . . .

فأجابت : إني لأعرف ! إن هذه التغييرات عملت لتزيد من مشاكل سوريا ولبنان . لقد شكلت حكومة في جبل العلويين وأخرى في جبل الدروز ، ولكن هذه الحكومات في شكل ولايات خاضعة لنفوذ الرؤساء من الأجانب في بيروت .

فقلت : إني لأرى أنك يا آنسة تثيرين ذهني في هذا

الموضوع !

وضحك ثلاثتنا معاً . وبدت ثناياها ناصعة البياض ذات حمرة خفيفة كتلك التي نلمسها على الأصداف . وأخذت

الأضواء تتراقص عليها ومضى الربان معتذراً بأشغاله وبقينا وحدنا ، فقلت لها : أظن أنك لا تعرفين النظم والأحوال القائمة في سوريا فحسب ، بل تعرفين بعض اللغات واللهجات المتداولة في الشرق الأدنى إلى جانب ذلك .

وتخضب وجه الغادة الأرجنتينية بحمرة خفيفة ، وكأن نارا انعكست ظلالتها عليه ، ولكن هذه الحمرة سرعان ما تلاشت ولحظت أن نظراتها تصرمت ورموشها اشتدت فبدت سوداء حالكة جعلت لعينيها منظراً آخر . وقالت لي : ألا تشرب شيئاً ؟

وكانها كانت واثقة أنى سأتبعها ، ولهذا خطت خطواتها إلى الأمام ، ولحقت في سيرى وراءها حالة أشبه ما تكون بسير الشاة وراء راعيها .

وعقب العشاء . . . ونحن نقرب من الشاطئ الأفريقي بباخرتنا وابلحو آخذ في الميل نحو السخونة ، وريح الليل الذي يهب علينا حاملاً نسيم البحر، يداعب أطراف ثوبها الفضفاض ، فينتهي حفيف ثوبها إلى سمعي كلحن شجي كله طرب — كان النسيم يداعبها فيظهر تقاطيع جسمها ، ويعبث بردائها فيحيلها تمثالاً حياً في ناظري .

كنا قد تعشنا وشربنا ورقصنا ، وها نحن أولاء نقطع

ظهر الباخرة جيئة وذهاباً . وكانت قد تركت حقيبتها على
المائدة فزنت إلى بيصرها وأومات لى وطلبت منى أن أقدم لها
لغافة من التبغ . فقدمت لها واحدة وأشعلت لنفسى أخرى . . .
وشدت على اللغافة فى نفس طويل وقالت متسائلة : أتبغ هذه
اللغافة من تبغ سمسون ؟

فقلت مجيباً : قد تكون من تبغ سمسون وقد تكون من
تبغ أزمير ، ولكنها على كل حال من تبغ تركيا .
وبعد فترة وقفت متكئة على سياج الباخرة وقالت لى وثغرها
يفتر عن ابتسامه حلوة : ما هى معلوماتك عن الأرجنتين ؟
فقلت : إنها قليلة !

وأعقبت قولى متحدثاً عن بوينس آيرس ، وعن قطعان
الغنم والجواموس والبقر ، وعن وفرة محصول القمح وعن مساحة
البلاد التى تقرب من خمسة أضعاف فرنسا ، وعن سلاسل جبال
الأنديز ، وعن أشياء كثيرة بوجه يجعلنى لا أسقط فى الامتحان ،
ولكنه لا يسمو إلى مرتبة الامتياز والتفوق . وسألها بدورى :
ولكن ما هى معلوماتك عن تركيا ؟

فأجابت : لا أحب أن أجعلك تسأم بذكر جميع ما تعرفه !
وحيثما رأيت إصرارى على سماع إجابتها ، ذلك الإصرار
الذى دفعنى إليه تأثير الخمر ، قالت : إذاً فى هذه الحالة

يجب أن أعطيك فكرة عن معلوماتي ، ولكن . . .
 ثم غرقت في تأملاتها وقالت أحدثك عن عدد الولايات
 التي زادت في تركيا؟ إنها ثلاث وستون ولاية ! أم أحدثك
 عن معنى رمز السهام الستة التي في العلم التركي الجمهوري؟
 إنها رمز الجمهورية والشعبية والدولة والمدنية والمالية والانقلابية،
 أسس الانقلاب التركي الحديث . . . أم أحدثك عن الأتراك
 من وجهة النظر القديمة ، أم استناداً إلى النظريات الحديثة التي
 تستند على أصول عنصرية تنهى للشعب الحيثي والسومري؟
 فقلت : أسمحين لي أيتها الأنسة أن أقول لك إنني أرى
 فيك أسراراً لا يسبر غورها .

فقلت مبتسمة : أراك تدور وعلى لسانك سؤال تريد
 أن توجهه لي ، وهو كيف أعرف الكردية؟ وأنت تحاول إلقاء
 هذا السؤال من الصباح ، وهو يدور على طرف لسانك ، ولكن
 يظهر أنك لم تجد شجاعة على إلقائه !

فقلت لها : ومع كل فانت سرّاً لا يسبر لك غور !
 وفي هذه اللحظة أحسست كأن إنساناً ورأى ، فالتفت
 فإذا بي وجهاً لوجه أمام الكاهن الذي رأيت في الصباح ،
 وقف عاقد أيديه على صدره ، وقد أغمض عينيه ، فكان أشبه
 ما يكون بصليب محفور في جذع شجرة !

انتهيت إلى قمرتي بالباخرة، وخلعت عنى رداء الرदनكوت،
وأخذت أفك عن عنقى ربطته ، وشممت للمرة الأولى
في يدي رائحة طيبة لم أشمها من قبل . لقد كانت رائحة بقيت
في يدي حينما كنت قابضاً على يد « زيلي » منذ هنيهة . وكنت
أحدث نفسي : يظهر أنها جاسوسة . لا شك أنها تقوم
بدور ماتا هاري ، ولكن في عهد السلم ، قد تكون قاصدة
لتلعب دوراً كدور لورانس . إنها لا شك ليست في سفرتها
الأولى لأوربا والشرق كما تدعى ، ورغبتها في أن تقصد
زيارة أنقاض المدائن القديمة في البادية ليس إلا خداعاً منها .
هي تعرفنا جيداً كما نعرف أنفسنا ، ولست أدري ما هو الدور
الذي ستلعبه في مهمتها وفي سفرتها هذه ؟

وفجأة تصاعد الدم شديداً لرأسي حينما تصورت أن دورها
يتصل ببلادى ، فمئذ سبع سنوات كان اليوزباشى مودفولد
الإنجليزى نزىل بغداد بالعراق مكلفاً بجمع أشتات
الأكراد والأرمن ، وكانت جهوده تتجه لتأسيس جمعية

« خيبون » التي غرضها تحرير الأكراد . وكانت نتيجة أعماله إثارة الأكراد على تركيا ودفعهم إلى العصيان ، حتى رفع علم الثورة الشيخ سعيد ، وقد لا قينانحن في تركيا الصعاب في إخضاعهم والعمل على جعل الأمن مستتباً بين ظهرانيهم . فقد كنت أذكر كل هذا منذ كنت عضواً بالمجلس الوطني الكبير بتركيا .

لقد كانت سوريا ساحة أفعال جمعية « خيبون » ، و « زيلي » الحسنة الأرجنتينية تقصد سوريا ، ومن هنالك ستذهب للعراق ، وفي صحبتها كاهن أشبه ما يكون بكهان الأشوريين القدماء ، وهي تتحدث معه بالكردية ، وقد تتحدث غداً مع غيره باللغة الأرمنية ، ومعى بالتركية ، ومع الأعراب في الصحراء بالعربية .

وكنت أراجع نفسي وأقول كل هذه أضغاث أهام ، إنها ولدت في مدينة مندوذا بالأرجنتين ، وهي مليونيرة ذاهبة لسوريا للسياحة .

وأخذت أستعيد خواطري عنها وأعجب لذاكرتها القوية في حفظ الأرقام والأسماء ومعرفة الرموز وما ترمز إليه من معان . وأعجب خاصة لمعرفة اسمي الذي انتهت إليه عن نظرة سريعة في الغالب لجواز سفرى الذى يحتفظ به الربآن .

وفجأة انبعث في ذهني هذا السؤال : لم تركت جميع من
في الباخرة وانشغلت بي وحدي ؟ لقد صحبتني كل الوقت ، فهل
تكلمها بالكرديّة أممي كان للفت نظري وإثارة اهتمامي
وإخضاعى لسلطان جاذبيتها وملاحظتها ؟ ومن ثم لاستخدامي
وتحريكى للغاية التي تصبو إليها ؟

لا شك أن المغامرة التي تقوم هي بها بدأت حوادثها اليوم ،
واندفعت أنا في طياتها ، ولست أدري ماذا ينتظرني في
المستقبل .

لقد غادرت فرنسا لأستريح في جنبات الشرق وها أنا ذا
أرى نفسي مندفعاً في مغامرة قد تتصل ببلادى وتعتبر جريمة
ضد الوطن .

كنت أعرف أن في سوريا جماعات كثيرة وعناصر متباينة
ترغب في سقوط الانقلاب التركي الحديث وإخفاقه . وكنت
أتصور من بين هؤلاء جموع الذين اضطروا للخروج وأنوفهم
راغمة من كليسيا ، وبعض متطرفي العرب الذين يرون في
وجود تركيا قوية في الشمال خطراً على الوحدة العربية وبجانب
كل هؤلاء أفراد أسرة آل عثمان الذين يذكرون تليد مجدهم
وتساورهم الرغبة في الرجوع إلى أوطانهم ، ومعهم جماعة اللاجئيين
إلى سوريا من العناصر التركية الرجعية التي اضطرت إلى

مغادرة تركيا بعد الانقلاب الأخير . . . ويجب أن لا ننسى
 جمعيات الأرمن وعصابات الأكراد الذين يحلمون بإقامة دولة
 أرمنية وأخرى كردية ، على حساب تركيا . استعرضت
 كل هذه الصور في مخيلتي وخرجت بأن سوريا جبهة تساعد
 أعداء الوطن في أعمالهم .

وذهبت بعيداً بتخيالاتي وشكوكي ، وتوهمت أن الغادة
 الأرجنتينية « زيلي ديلا يزدى » ستنزول إلى هذا الميدان وستطلق
 لجوادها الأعنة في هذه الساحة .

وكانت ليلة ليلاء ، قضيتها أتطلع من طاقات القمر بين
 الفينة والفينة ، منتظراً ضوء الصباح ، فلعله يتشلىني من هذه
 الأوهام التي تعرض على ستارة مخيلتي . . . وأخيراً غادرت
 فراشي وانطلقت إلى الخارج ، وبدت الباخرة لناظري في منظر
 كله سحر وأسرار ، وكان الجو لا يزال غارقاً في ظلام
 خفيف . . .

أخذت مكاني على إحدى الأرائك المنبثة في جنبات
 الباخرة ، وكلما انتشر الضوء وغمر الآفاق استولى على شعور
 الحياء مما كان يجول بخاطري . وبدأ الصبح يعلن عن نفسه ،
 وأخذت سهام الشفق الأولى تنتصب وتنطلق فترتكز على صفحة
 السماء .

أشرفت الشمس وأخذت أشعتها تغسل الباخرة وتتألق فوق سطح السفينة ، وانتثرت على صفحة المياه زرقة خفيفة سرعان ما وصلت إلى الباخرة فاكتنفها وامتدت فشملت الآفاق كلها .

وكنت على وشك النزول لقمرتي ، غير أني توقفت فجأة . إذ أحسست بأنفاس وحركة بجانبى فظللت في مكاني لا أتحرك يحجبني عن الأنظار بعض آلات الباخرة .

رأيت « زيلي » قد خرجت من قمرتها الفاخرة إلى ظهر الباخرة ، وأخذت تنزو إلى قرص الشمس المشتعل في خشوع . . . وبدت ممشوقة القوام في ملابسها الفضفاضة ، حيث تأزرت بجزام في الوسط ، فبدت رائعة الجمال في شباب فياض . وبدون أن أتحرك أخذت أرقبها خلسة من العلاء .

وفجأة استقر نظري على قدميها فإذا بها حافية . . . ولكن لماذا تدوس على الأرض حافية القدمين ؟

وقمت من مكاني وملت قليلاً أرنو إليها . وبدت لي بشعرها المهمل المسترسل على كتفيها حتى الأرض كأنها ملاك ؛ ووجهها كان ناصعاً بريئاً حتى لقد تخيلت فيها صورة العذراء التي رسمتها ريشة رافائيل ، وكنت بخيالي أرى بين ذراعيها المسيح موسداً .

وفجأة انتصبت واقفاً ولم تصدق عيناى ما رأيت ؛ لقد رأيت الغادة الإسبانية تركع أمام الشمس المشرقة وتنحني راكعة ثلاث مرات باحترام كلى وخشوع تام ، ثم قفلت عائدة إلى حجرتها وكأنها طيف خرج من بين المقابر ، ومضت فى رجوعها متقهقرة ووجهها لقرص الشمس حتى اختفت عن ناظرى .

أخذ « فيو » يحدث « زيلي » يقول لها : يا آنسة إذا رغبت أن تقومي برحلة فى الصحراء على ظهور الإبل ، فليس لك إلا أن تبحنى عنى فى تدمير وتطليبنى حيث المهجين الأصيل هنالك رهن إشارة منك .

وشكرت زيلي محدثها ، وهو أحد ضباط المستعمرات ، مملوء الجسم ، ممشوق القامة ، جاوز سن الشباب ، وهو إلى ذلك ، من أولئك الفرسان الذين اشتركوا فى إقامة إمبراطورية فرنسا الضخمة المترامية الأطراف . . . غير أن الظلال التى كانت تنعكس من عينيه لم تكن لتشعر الإنسان بالأضواء

والظلال التي تعكسها طبيعة فرنسا ، على أبنائها ، وإنما تلمس فيهما البساطة والصرامة ، تلك الصفات التي اكتسبها من خيام البدو وامتداد الصحراء ، وتلمس في روحه انبساط الأفق في الفيافي .

وكان بالباخرة كثيرون من الضباط الفرنسيين ، الذين انتهت إجازاتهم بانتهاء الصيف فأخذوا يؤوبون إلى سوريا . وزيلي تبدو لناظري قد أخذت جلسها إلى المائدة تراقب جموعهم عن كئيب مبدية بعض الاهتمام بحركاتهم . وقد استقرت إحدى قدميها على الأخرى واستقرت يدها على ركبتها ، وبدأت غارقة في مشاهداتها .

وتقدم منها ضابط شاب من قوات الفرسان وأعطها عنوانه . ومع أن صاحبنا قضى عامين في قفار البادية في سوريا على رأس جماعة من الفرسان إلا أن أشعة البادية المحرقة لم تقدر على أن تنال من طراوة وجهه وعمق عينيه . ثم تحدث ضابط آخر طويل القامة ، عظيم الهيكل ، ظاهر القسمات ، قائلاً : يظهر يا آنسة أن طريقك ورحلتك ستنتهيان دون أن يكون مستقرى من ضمن الأصدقاء التي تمرين بها ، إذ ليس في مستقرى شيء يمكنه أن يجذب اهتمامك .

غير أن زيلي نظرت إلى محدثها نظرة عميقة وقالت في دلال

مبتسمة : لا تحكم يا صاحبي ، فربما نتقابل !
 ولقد أثار جوابها اهتمامي ، فملت إلى القائمقام الذي بجوارى
 وسألته عن من يكون محدثها الأخير وماذا يشغل من المراكز في
 سوريا ؟ فقال : إنه رئيس قلم الاستخبارات في « أورده ك
 غاغه سي » . ولما رأى في وجهي علامات عدم الإدراك لكلامه
 أضاف إنه رئيس قلم استخبارات منطقة صغيرة
 محصورة بين تركيا والعراق في الجزيرة العليا ، وقد أطلق الناس
 على هذه المنطقة عبارة « أورده ك غاغه سي » لأنها شبيهة
 بمنقار البط . وفي الاتفاق الأخير . . . عفواً لقد تركتموها
 لسوريا .

وقد لاحظت « زيلي » أمرى . وإني وإن كنت لم أنظر
 إليها ، غير أني كنت أشعر بنظراتها تشعل النار فيّ وتجعلني
 أتصيب عرقاً ، ولم أجد لنفسى مخرجاً إلا أن أتحدث متظاهراً
 بمعلوماتي :

— نعم إنكما تتحدثان عن جزيرة ابن عمر ، ولقد تمكن
 أحد رهبانكم من العثور على أحد أديرتها الرومانية وتصويرها
 من الجو ، وغالباً

وذهب حديثي كهمس بينهم ، وإن كنت مقتنعاً أن
 زيلي قد أصغت إليّ، وجلسنا نسامر ، وأخذ أحد الجنود يحدثنا عن

الحكايات التي يتناقلها البدو ، وذهب آخر يحدنا عن تفاصيل محاولة صيد الغزال بالسيارة . وكانت زيلي مستغرقة كطفل أمام مشهد سينمائي . ولم تكن في نظر هؤلاء الذين لم يسبروا غورها مثلى أكثر من مليونيرة خرجت لتصيد المتع والسرور .

لقد كنت تخلصت من كابوس الليلة الماضية ، ولكن على ألا أترك أثر « زيلي » . وعزمت على أن أستعين بخبرة زملائي المشتغلين بإدارة التحقيقات السرية إذا استلزم الأمر . فقد كان شكى شديداً في أنها قائمة بسياحتها لغرض معين ولخطة مرسومة ، غير أن نقطتين من تصرفاتها لم تكن لتجانس خطوط تفكيرى العام ، وأولى هاتين النقطتين : أنها لم تخف معلومتها المستفيضة عن سوريا عنى في حين أنها تتظاهر بقله المعلومات أمام الجميع وتتخطر بجهلها . والنقطة الثانية أنها تعمل كل جهدها لتورثنى الحيرة . . . ثم ما معنى ابتهاها وعبادتها للشمس المشرقة مع أنها منذ دقيقتين رسمت الصليب كفتاة إسبانية متعصبة حينما ورد عرضاً في الحديث ذكر الأموات . وكيف يتفق هذا كله مع مظهرها العام الذى لا يتفق مع مظهر مسيحية متعصبة ؟

وقبل الظهر كنا جلوساً إلى بعض نتحدث ، وكنت أقول لها : لقد كنت أحب أن أرى أمريكتكم منذ زمن طويل ،

ولكن يظهر أن رؤيتي لها لن تخذعني عن حقيقتها ، ما دامت
قد قدرت على أن تخلص بالانتخاب إلى مثل الآنسة « زيلي »
في الأرجنتين من العرق الإسباني . . . هذا إذا كان انتخاب
الطبيعة قد لحقك وانحدرت من سلائل الإسبانية ، ولكنني أشك
في أنك إسبانية ؟ ! ولهذا أشك في مثل هذا الانتخاب !

فضحكت وقالت : إنني أرجنتينية !

فقلت : أمعنى هذا أنك في الأصل من الأرجنتين ؟ !

فضحكت قائلة : أظنني أختلف معك في مفهوم الجنس
والعرق ، لأن التكلم عن الأجناس يستلزم الرجوع إلى عصور
ما قبل التاريخ . وجموع البشر الذين يعيشون الآن في المسكونة
هم نتيجة لمجموعة من الانتخابات انتهت بكل جماعة وفقاً
لظروفها إلى حدود معينة عرفت بالجنس ! وإنك لن تجد
أساساً يمكنك أن تبني عليها تفريقك بين شعوب الأرض من
قطر لآخر . لقد كان العلماء في وقت ما يستندون على الملامح ،
ولكن هل من الممكن أن تفرق ملامح داروين وتلستوى عن
ملامح قدماء الأستراليين الأصليين . والتحقيقات التي أجراها
العلماء في القحوف البشرية أثبتت أن قحوف الإنسان في
عصوره الحجرية لا تختلف قليلاً عن القحف الذي رسموه
لدماغ ألفونس ده دوديه .

فأجبتها : إن معلوماتك وإن كانت عميقة لدرجة توجب الدهشة ، إلا أنها تجعلني أشك في الأرجنتين كمصدر فقط لتصدير اللحوم المحفوظة ، لأنها تصدر أيضاً عقولاً راجحة ، نتيجة لما بلغته جامعاتها من رقي وسمو . ولكن سؤالى الذى ألقته أريد جوابه في نطاق النظريات القديمة عن الجنس والعرق ، بمعناهما الضيق الذى أنساه .

فأجابت : إذا قلت لك إنى آسيوية فإنى لا أوضح لك شيئاً ، لأن كولبس حين كشف الأمريكتين إنما كشف عن امتداد لآسيا وعثر على طوائف آسيوية . والمهم أنه كان بالأرجنتين نحو نصف مليون من أهالى البلاد الأصليين في أوائل القرن الثامن عشر ، ولم يكن الأوروبيون يزيدون عن خمسين ألفاً وقتئذ ، ولكن مع الزمن ازداد الأوروبيون فبلغ عددهم ثلاثة عشر مليون نسمة ، وتناقص السكان الأصليون ، ولم يبق منهم أكثر من عشرين ألفاً ! وقد لا يسترعىك هذا الموضوع ولكنه يحتل من تفكيرى قطب دائرتها ، لأننى كلفة ومهتمة بالأقليات التى تأخذ طريقها للاندثار . ذلك لأننى وقفت نفسى على تحرير هذه الأقليات أو بعضها وحفظها من الاندثار !

وقد أخرجني من تأملاتي التي غرقت فيها مع كلامها
 ضغطها على عبارتها الأخيرة ، وتلك النظرات الصارمة التي بدت
 في عينيها مع لمعان عجيب ، وذهبت في تخيالاتي أضرب أخماساً
 في أسداس ، وأخمن حقيقة هذا العنصر المهدد بالانقراض الذي
 تعنيه « زيلي » بكلامها

وقطعت جبل تفكيرى قائلاً لها : ولكن يا آنسة « زيلي »
 لقد فكر من قبل مثل فكرك الدكتور ويلسون وأراد أن يصون
 حياة الأسماك الصغيرة من أن تبتلعها الأسماك الكبيرة . وبمثاليته
 التي خرج بها قلب رأساً على عقب نواميس الحياة في الكون
 التي كانت الإنسانية دارجة عليه . ولكن من كان ويلسون هذا ؟
 لم يكن إلا رسول العالم الحديد الذي ورث العالم القديم بمدنياته
 وأهرامه ومعابده . وهذا الرسول الحديد الذي خرج لأهل الأرض
 ولأوروبا المتهالكة خاصة لم يأت من الله ولكن جاء من أمريكا ،
 ولهذا ذهبت صحبته في واد لأنها لم تصدر عن قلب عامر .
 وأنا شخص درجت على مواجهة الحياة لا أعرف التعلق بالمثاليات
 وتخيلياتها ، والذي أعرفه أن الدول الكبيرة تتخذ الصغيرة ميداناً
 لسياستها وحلبة لحيادها وتخدع الدول الصغرى ، وتصرف في
 سبيل ذلك الملايين لأن عليها حياتها .

وبدت « زيلي » لناظري غير غاضبة لاسترسالى فى حملاتى ، وابتسمت حين مضيت أقول :

— ماذا جرى للأشوريين الذين أثارهم الإنجليز فى الحب العظمى ضدنا ؟ هل اعترفوا لهم بحقهم فى الحياة ؟ لقد رفعوا السلاح فى وجهنا ، واليوم يطردون من الجزيرة ! ويخيل إلى أن السبيل السوى لهذه الأقليات أن تبقى مخلصة للأكثرية ، تتعاون معها حتى لا تتعرض لأخطار أكثر مما هى متعرضة لها .

وقاطعتنى قائلة : ولكن إذا كانت الدولة التى تعيش فيها هذه الأقلية لم يعترف لها بحق الحياة وبإمكان إدارة نفسها بنفسها ، فما قولك !

وإزاء هذا السؤال غرقت من جديد فى تأملاتى أبحث عن السر الذى يجول على أطراف لسان هذه الساحرة الأرجنتينية .

• • •

ولقيتني « زيلي » منفرداً فأسرعت إلى ووضعت يدها فى يدي وجذبتني ومضت بي سائرة وأنا أطوع لها من بنانها ، وأخذت تتحدث إلى قائلة : كم كتاباً قرأته عن سوريا والعراق يا صاحبي ؟ نحن كم طالعت ؟! . . . لقد طالعت نيفاً وثمانين كتاباً ، بعضها عن جيولوجيتها وبعضها الآخر عن

تاريخها وآدابها وشعرها ولغاتها وطبقاتها ، غير ما كتب في كتب الرحلات . وكل ما طالعته أثبت لي سوء تصرف الإدارة الفرنسية في سوريا .

فأجبت : أظن أن ليس من حسن الفطنة أن تقولى هذا ، ونحن سننزل غداً ضيوفاً على الفرنسيين في سوريا ؛ ولا أظنك حاملة عليهم في قولك هذا ، ولست من الذين يؤمنون بنظام الإدارة الإنجلوسكونية .

ولاحظت على « زبلي » عدم انتباهها لتلميحى إذ قالت : لا يمكنك أن تنكر أن إنجلترا لم تعط سوريا - على عهد السلطان حسين والملك فيصل - استقلالاً مبكراً حتى تداس الأقليات ، وإن أعطت العراق استقلالاً متأخراً ، فإنها ما كادت تنال استقلالها حتى مضت على سياسة آل عثمان العاشمة في اضطهاد الأقليات ، ولقد أغمض الإنجليز أعينهم عن هذه التصرفات ، فكلهم سبان من ناحية السياسة .

وسألتها : ولكن ما رأيك في تركيا الكمالية ؟

فأجابت : إن أهم ما يسترعى انتباهى في تركيا الجديدة أنها دولة مدنية . إنى أعرف أنى لست صريحة للدرجة التى تجعلك تطمئن إلىّ ، وذلك لأن الوقت الذى أكون فيه معك صريحة لم يحن بعد



وفي المغرب كانت « زيلي » تحدثنا عن الأرجنتين وعن سهول المنداس . وكنت أحس أنها تعمدت هذا الموضوع لتقضى على الشكوك التي تساورني ، ولثبت أنها أرجنتينية الأصل . وكان القائم مقام الفرنسي كلفاً بجديث « زيلي » ، فكلما ذكرت شيئاً استزادها . وطلب منها مرة أن تتحدث عن سهول اليمباس ، فقالت : اليمباس في الواقع محيط مترام الأطراف أمواجه الحشائش وأسماكه تلك الأغنام والقطعان التي تجوس في مراعيه ، واستقلال هذه المراعي عن البحر ليس بعائد إلى عصر بعيد من العصور الجيولوجية ، لأنك لا تزال تحس بملوحة البحر في تربة هذه المراعي وتنفس اليود مع هوائها الرطيب الذي يعبق جوها . وأقول لكم أرضها ، ولكن أي أرض هي ؟ إنها طبقات تكونت من المواد العضوية المتراكمة ، من بقايا الأشجار والنباتات التي مالت نحو الاندثار مع الزمان . . .

وسألتها . ولكن هل جرئت في سهول اليمباس وراء الجبول ، واستعملت الحنيّة في اصطيادها ؟

وبدلاً من أن تجاوبني مدت يدها إلى قصاصة من الورق وخطت عليها كلمتين ودعت الساقى وطلبت منه أن يذهب إلى قمرة عينتها له ، وبتنا من حولها صامتين . ومضت الدقائق

طويلة ، وفجأة بدا أمام ناظرنا ذلك الكاهن الملتحي الذى فى ركابها ، ويده حقيبة صغيرة من الجلد ، فلما رآته « زيلى » قفزت نحوه واحتطفت الحقيبة ، وفتحها وأخرجت منها حنية من الجلد معقودة من أحد طرفيها . . . ومضت ومضينا كلنا كقطيع من الغنم وراء راعيه حينما سارت من الصالون إلى ظهر الباخرة ، وهناك قالت بعد أن توجهت نحونا :

إنكم تعلمون أن هذه الحنية تستعمل أيضاً فى اصطيد الأعداء . وتوجهت لى قائلة : المكان ضيق فابتعدوا أكثر من عشرين متراً .

وتدفق الدم إلى وجهى واعترتنى حمرة الخجل . غير أنها سرعان ما تلاشت حينما قالت لنا : هيا اجروا ، وبعد أن أقبض عليكم نتصاحب ! وتضاحكنا ، وكان أحد الضباط الشبان قد انطلق إلى الأمام كالسهم ، وفجأة أحسست بنسيم يداعب شعرى وصوت أشبه بالأزيز مرّ من فوق رأسى وترامت عيناى يميناً ويساراً وانتهت على الحنية وقد أحاطت برقبة الضابط . وكانت « زيلى » قد أطلقت عنان الحنية من يدها وأخذت تتقدم من طرفيها وتصافحاً !

وبين تصفيق الجميع ، وهتافاته غرقت فى تأملاتى

وتصوراتي مقررًا أن هذه الحساء أرجنتينية لاشك، ومن بنات
الجباس، وإلا لما أجدت رمى الحنية هذه الإجادة، وهي لعبة
خاصة بأهل الأرجنتين.

٤

قال لى الربان يوماً : إن صديقتك ذات أطوار غريبة ،
فليس فى وسع الإنسان إلا أن يحار من أوامرها فى اختيار ألوان
الطعام ... السمك ، لحم الخنزير ، الحس ، الملفوف . . . إنها
لا تريد أن ترى هذه المأكولات . وحينما ركبت السفينة كتبت
هذه الألوان وقدمتها إلى « الميتردوتيل » . ولا أعلم ما هو موقفها
حين تدعى إلى المآدب الكبرى ، إذ من الصعوبة بمكان أن
نتصور سائحاً لا يتناول خلال سياحته السمك وشرائح لحم
الخنزير . نعم لاقيت كثيرين فى حياتى من المسلمين الذين
لا يأكلون شرائح الجمبون ، ولا يشربون الخمر .

ويشارك أميرة الجباس فى تقاليدها ذلك العبد الملتحي الذى
يصاحبها ، فهو لا يأكل من صنوف الطعام ما لا تأكله ؟
ويخيل إلى أن السيدة وخدامها قد اقتبسا بعض التقاليد الغربية

بحكم الحوار من هنود أمريكا الحمر ، فكما أن عادات الإسبان سرت في الشعب المهجين الذي تولد في أمريكا من سلائل الإسبان وأهل أمريكا الأصليين ، كذلك وجدت بعض عادات الأمريكيان الأصليين طريقها إلى هذا الشعب المهجين .

فكانت إجابتي أن قلت : كأني بك يا صاحبي تريد أن تقول إن « زيلي » ثمرة اختلاط بعض الإسبان المتقدمين المخاطرين — الذين ذهبوا إلى الأرض الحديدية — بأبناء البلاد الأصليين .

فكانت إجابته : إنني لا أشك لحظة في ذلك ، فإن المهارة التي أظهرتها ابنة اليمباس في لعبة الحنية أعطتني هذه الفكرة ، لو كنت رأيتها حين رمت القوس لعجبت من لمعة عينها وما بدا فيها من البريق الخاطف ، حتى لقد تمثلت في نظري وحشية الإنسان في العصور الأولى مستترة وراء إهاب التحضر . . . لا أريد أن أنال من إعجابك بها أيها الزميل ، وربما من حبك ، ولكن كل ما أحب أن أقوله إن كل هذه الأسرار والألغاز التي تحيط بها لا تنال منها ، لأنها تخلق من حولها هالة من الجاذبية .

ومضيت إلى مكتبة الباخرة أبحث عن الكتب والمؤلفات

التي تتناول الأرجنتين بالبحث ، وتحدث عن شعب الجاشو المولد من امتزاج الإسبان وهنود أمريكا الحمر . وعثرت على مجلد من دائرة المعارف فيه فصل عن الأرجنتين ، وخرجت من بحثي بأن ما نطلق عليه نحن اسم الجاشو في لغاتنا الأوربية يعبر عنه بالإسبانية بلفظ الجاشو ، وتطلق عادة على رعاة الغنم والبقر الذين يجوبون سهوب الميباس . وتيقنت أن هؤلاء الرعاة على جانب عظيم من القدرة في رمي الحنية وركوب الخيل .

نعم كانت هذه المعلومات ضئيلة لا تضيف شيئاً كثيراً إلى معلوماتي العامة في هذا الموضوع ، ولم أكن قد وجدت في فصل الأرجنتين بدائرة المعارف ما يروى نهمي .

• • •

ستمرّ باخرتنا في الغد بالإسكندرية ، وتبقى ليلة واحدة أمامنا لنصل إلى بيروت .

وكنت قد أخذت جلستي بعد العشاء بالقرب من جلسة « زيلي » أرنو إليها بنظراتي مستعطفاً وكلّي رجاء أن أستجلب نظرها فتأني إلى جوارى . . . وكانت هي كعادتها قد لبست البياض وتزينت بلآلئها فكانت كالربيع في زينتها ، ولم

يكن خيالي ليتصور في هذه الساعة أجمل منها .
 لقد شعرت باقتراب الساعة التي سنفترق فيها ، وكان
 هذا الشعور سبباً لأن يزيل من نفسي كل مخاوفى منها ،
 وبقي شيء واحد يورثنى الحزن والملل هو فراقها . وكرعت
 كأساً من الويسكى ممزوجة بالصودا وأوصيت على أخرى ،
 وكان الجو ممطراً مكفهراً في الخارج يبعث في النفس الانقباض ،
 وكنت أرنو بنظري من حافة « الصالون » إلى الخارج ، وكنت
 أرى الباخرة في ذلك الجو المظلم المكفهتر الممطر مسرعة في
 مضيتها ، وكنت أسمع مراجلها بحسى وكأنها استحالت قلب
 إنسان بما تنبض به آلاتها من الثورة والهيجان .

وكانت « زيلي » قد افترقت عن جموع الضباط وسارت ،
 فزفوت إليها آملاً أن تتقدم منى ، ولكنها مضت بعد أن زودتني
 بابتسامة حلوة صغيرة كالورود . . . وتأكدت أنها ستذهب ،
 فلم أحس بنفسى إلا وأنا منطلقى وراءها أقول لها : يا آنسة
 « زيلي » أأست ترين أن من الواجب أن نتحدث قليلاً إلى
 بعض قبل أن نفرق ؟ !

فأجابت مبتسمة : أرى أن هذه المقابلة ضرورية ولازمة ،
 وذات فائدة لأغراضى ، بل من دواعى سرورى . . . ولكن
 قبل هذا أجبني : كم يوماً ستبقى ببيروت ؟

فأجبتها : ليست لي بيروت حاجة . وإنه من عاداتي متى أحس بضيق ، وبعدم تفتح شعوري للاندماج في الحياة العامة ، أن آوى إلى ركن من أركان العالم حيث أقضى بعض الوقت على هامش الحياة . فأنا أحس وكأن في رأسي معامل تدور من الضجيج والهتاف والتصفيق ، وكأن واعيتي غرقت في لاشعوري فاختلطت وقائعها . . . لهذا أميل إلى الهدوء ، ولعلّ هذا نتيجة الثورة التركبية التي قمت بدوري فيها .

وضحكت « زيلي » ورنّت إلى مبتسمة ، فوجدت في ابتسامتها ما يشجعني على موالاة القول ؛ فضيت أتحدث إليها طويلاً ولا غرض لي غير أن أجذبها لحدِيثي فأبقيها لحواري ، وهذه الرغبة ساقّت أقوالى لوادي العجائب .

فقال « زيلي » : إن حياتك في الخنادق وفي ميادين القتال أثرت في نفسك .

فضيت في حديثي : في الوقت الذي كنت فيه متصرفاً في « حماة » اشتريت قرية . ونظراً لانشغالي بقيت إدارتها في يد بعض الوكلاء . . . وهذه الأرض التي تبلغ مقدار مقاطعة بأسرها أخذت من بعض أصدقائي الفرنسيين بباريس توصية لأتسلمها وأستغلها لفائدتي الخاصة . وهأنذا ذاهب إلى هذه الأرض لأستقر فيها . إنني أطلب الهدوء في العيش على هامش

الحياة . ولست أدري كم سأتبقى هنالك ، فربما طاب لي العيش شهراً أو شهرين وربما عاماً أو عامين ، وربما بقيت هنالك بقية أيام عمري .

ونظرت إلى طويلاً ثم قالت : إن شخصاً مثلك من رجال الثورات وأبطال الانقلاب ليس له أن يتزوى هكذا على هامش الحياة .

فقلت : إنهم لم يعرفوني حق المعرفة . ولم يتعد دوري في الثورة التركية والانقلاب سوى مرور سريع بين أبطال الانقلاب ، مما أسبغ على في نظر البعض بطولية لست أو من بها ، لأنني كنت أحس بضآلتي إزاء هؤلاء الأبطال . ولست أكثر من وميض بدا في ظلماء ليل بجانب بركان يقذف بالحجم . . .

فقلت : إن فيك استعداداً للهروب من مواضع الحياة لما فيها من مساوئ . وبتعبير أدق فيك ميل للانحلال النفسي . عفواً فإنما أنا أتكلم من ناحية العلم ، إن فيك استعداداً قوياً لأن تمر في دورة جديدة من دورات الحياة نتيجة لما تركه ماضيك من أثر على نفسك .

فكانت إجابتي أن ضحكتُ وقلت : إن هذا التصوير يذهب بي أن أتصور نفسي « پافنوس » ذلك الكاهن الذي صورته فن أناتول فرانس ، ولكن من تكون « تاييس » التي

ستلعب دورها معي فتخرجني للحياة والتعلق بها . . .
 وفجأة سألتني : هلا تتفضل وتحدثني عن قرينتك التي
 ستأوى لها ؟

فمدت يدي وأخرجت من جيب رداي محفظتي ، ووضعتها
 على المائدة وأخرجت بطاقة منها ، وعلى ظهرها رسمت خريطة
 كروكية للقرية ، وقلت : انظري هنا حمص ، وهذا الطريق الذي
 ترينه يذهب من بالميرا التي يسميها العرب تدمر إلى دير الزور . . .
 وليس لنا أن نذهب بعيداً إلى هذا الحد ، فتي خرجنا من
 حمص وابتعدنا عشرة كيلو مترات وجدنا القرية التي ستحتويني
 واسمها « عين الزباء » أو « عين زينب » ، وهي منسوبة إلى
 الزباء ملكة تدمر المشهورة في التاريخ ، وهي تعرف عند العرب
 بزينب وعند الإفرنج بزنوبيا . . .

فمدت أصبعها وأخذت تشير إلى الخريطة التي رسمتها
 وقالت : كأنه هنالك يقوم الفرات ، وكأن بالموصل هنا ، وبين
 مجرى الفرات والدجلة تقوم جبال سنجار . . . وسألتني هل
 لك بعض المعلومات عن جبال سنجار ؟ فأجبته بالنفي .

وقالت لي : يا زميلي هل لك أن تأوى إلى قرينتك مطمئناً
 مدة شهر ، وفي خلالها سيصلك خبري ؟

ووقفنا وجهاً إلى وجه ، كل منا مؤمناً بإخلاص الآخر ،

وكنت مفتوناً بها وبجمالها حين قلت : إنى أحب أن أراك وأن
أجلس إليك وأتحدث :

ومدت زبلى يدها وتناولت بطاقتى ووضعتها فى حقيبتها
وقالت : إن أعمالى تستلزم رؤيتى لك ومحادثتى لك ، فلهذا
أطمئنتك من جهة رؤيتى !
ومدت يدها وسلمت على ومضت ذاهبة .

• • •

ولم أنزل بمدينة الإسكندرية التى أخذت منذ ساعتين تلوح
لناظرى ، ولم يكن سبب انصرافى عن النزول إليها راجعاً لكونى
لا أرغب فى ذلك ، إنما كان لسبب واضح ، وهو أنى لم أر بين
النازلىين « زبلى » . فقد كان تصور ابتعادى عنها ساعتين
دهراً طويلاً لا يمكن الصبر عليه .

وفى الظهيرة ، حيث تهيأنا للغداء ، وبدت « زبلى » فى
الصالون ، لاحظت أنه حين قدم لنا السمك قدم لها أصناف
أخرى من الطعام . . . وكانت تشرب من خمر الرين . وكنت
مشغولاً بها كل الوقت أعد عليها كل شىء حتى تنفسها
وشهيقها وزفيرها ، وكنت أشعر بالحزن يستولى على كل ما
ذهب بى الفكر إلى ساعة الوداع حين نتصافح فنفترق ، ولقد
تولد بينى وبينها بعد حديثى معها شىء لا أعرف بماذا أعبر

عنه ، كله سر وألغاز يجعلني لا أعمل على الاتصال بها . . .
 وفي الأصيل احتجبت في مقصورتها . . . ولكنها في
 المساء بدت ناصعة البياض ، وكنت في عجب لظهورها
 دائماً بالملابس البيضاء ، وكانت قد تزينت بعقد من الزمرد لمع
 تحت أضواء الباخرة ، وتألقت تألق نجوم السماء في ظلام القبة
 المحيطة بها ، وكنت أنظر إليها من الركن الذي وقفت فيه
 نظرات حسرة ، فغداً سنفترق . ومن يعلم فقد لا نتقابل مرة
 أخرى !

وكانت نظراتي تنهى إليها وترتد حزينة إلى نفسي فتشعل
 في جوانحي النار ، وكانت قد عقصت شعرها على رأسها في
 صورة ذكرتي بنساء بيزنطة وسيدات العصور الوسطى ،
 وكانت هي بمنظرها هذا المساء تعود بالزمان القهقري بين
 جمع من الفتيات بدين في أحدث الأزياء العالمية ؛ وانسأقت
 أقدامنا في صحب الجمع حتى تقابلنا فجأة في أحد الأركان
 فمسكتني بيدها ومالت علي وقالت : غداً سوف تطأ قدمي
 للمرة الأولى أرض آسيا ، وهذا الحدث يبعث في نفسي فورة
 المشاعر وثورة الوجدان . وبعد أيام قلائل سأكون في إحدى
 قرى هذا الشرق أستمع إلى شكوى وآلام شعب صغير مهدد
 ومضطهد ، وأنت ستكون معي تعاوني على ترفيه آلام هذا

الشعب . . . غير أنى سأذهب فى عملى متعلقة بمثل أعلى أو من به يبعث فى صدرى حرارة العمل والشوق إلى إنجازه ، وأما أنت فلست أدرى ما الذى يجعلك تشاركنى العمل بنفس حرارتى وبعاطفتى .

فأجبتها قائلاً : لقد حدثتك من قبل عما يبعث فى نفسى عاطفة مشاركتك العمل ، ولا شك أنى ذلك الراهب « بافنوس » الذى أخرجه « تاييس » من عزلته وبعثت فى نفسه فورة المشاعر وثورة العواطف للعمل . . . أما أنت فتاييس .

وبنظرة حزينة مغمورة كلها بالمشاعر نظرت إلى « زبلى » وقالت : لتكلم الآن حديث جد . غداً يوم الثلاثاء ٢٦ تشرين الثانى (أكتوبر) من عام ١٩٣٣ ، وفى يوم السبت الأخير من عام ١٩٣٣ سنتقابل فى المكان الذى سأحدده لك فى الصحراء . وحينئذ تنال بغيتك من معرفة أمرى ، فهل أنت على استعداد لأن تقابلنى فى ذلك التاريخ فى المكان الذى سأحدده ؟

فأجبتها بالقبول : ومضت فى الصالون برداء السواريه الذى يجر أذياله على الأرض ، مرفوعة الهام بقوامها الممشوق ، وكان شعورى إزاءها عجبياً إذ صورتها ملكة من ملكات العصور الغابرة ماضية فى صفحة التاريخ تاركة وراءها آثارها ، وبخيالى

تصورت حولها أتباعها من الأشباح ، كل ارتدى الملابس
الموشاة بالقصب وانحنى أمام مليكته . وجموع الأميرات
الجميلات من حولها يخففن بها كما يخف ببدر السماء نجومها .

٥

قلت لموسى أفندى : استرح أنت أيضاً لأنى سأستلقى
قليلاً ، وقد أغفو إغفاءة قصيرة .

وموسى أفندى هذا شركسى ووكيل قرىتى التى أمتلكها .
ومد يده بمسبحته الطويلة ووضعها فى جيب ردايه الأسود
الذى يستر كل جسمه حتى أخمص قدميه ، ومضى فى سبيله .
وكنت بمنزلى فى قرىتى ، غير أن هذا المنزل كان قد
أعملت فيه يد التعمير بناء على أوامرى التى أرسلتها من باريس
قبل أن أرحل ، فبدا للنظر جديداً منظماً ، وكان مدخله عن
طريق سلم صغير جانبي يؤدي إلى ردهة تتفرع عنها حجرتان .
هذا هو منزلى الذى يقوم فوق دائرة الوكيل موسى أفندى ،
ولكن ما أطلق عليه لفظ القرية ليس فيه شجرة واحدة ولا مجرى
ماء واحد ، ولا حديقة من الورد ولا عريشة يستظل بها الإنسان

من الهجير . وكل ما يمكن أن يقال عن هذه القرية أنها عبارة عن بضع مئين من المساكين القائمة في ساحة تمتد مع البصر إلى ما لا يدرك له حد ، خالية من كل معالم الحياة ، ولولا أن الشمس تشرق في الشتاء علينا لكان الجو لا يحتمل لبرودته ، أما في الصيف فالنهار خانق والليل مفزع ، ونظراً لأن قريتنا تقع في الطريق بين تدمر وحمص فإن العمال الذين يعملون في الطريق والمسافرين والقوات العسكرية تأوى إليها بسياراتها على اعتبار أنها مرحلة أساسية ، فإذا ما مضت منها بدت لأعيننا جموعها كتضاريس مرتفعة من الساحة المنبسطة أمام بصرنا .

لقد كانت قريتنا « عين الزباء » نقطة عسكرية أيام كان لتدمر عزتها ومجدها ، وكان للدولة الرومانية سطوتها في الشرق . ولقد بقيت في القرية من آثار الماضي بقايا قصر منيف لا تتعدى بضعة أعمدة من صخر الجرانيت قائمة تضرب صفحة السماء بروقها ، وبجوارها بئر عميقة غزيرة الماء ، واسم القرية مشتق من هذه العين لأنها مصدر الحياة الوحيد فيها .

لقد كنت في عيشي أستنشق هواء الماضي حيث كان للزباء شأن في التاريخ في هذه البقاع ، فهي التي خلقت لهذه القرية وجوداً على صفحة الحياة حين حفرت هذه البئر فقامت القرية حولها ، ولقد مرت مدينتان على هذه الساحة ، أذكر

بخيالي منها مدنية آشور والحيشيين وفراعنة مصر والفرس وأخيراً الرومان ثم العرب فالأتراك فالفرنسيين . ومع هذا كله فالقرية قائمة تعيش على هذه البئر ومنها يستمد الغزاة والفاتحون لأنفسهم الماء في الساحة التي تمتد من حمص إلى تدمر . ولقد ذهبت بمخيلتي يوماً أتصور جموع الجيوش التي مرت في هذه القرية وكلها تحني هامها أمام البئر حيث تروى ظمأها ، لقد ذهب الجميع في طيات التاريخ وسيذهب غداً ما سيأتي به المستقبل وتبقى البئر وحدها أبد الدهر ، تذكر الإنسان بالزباء في كل جرعة يشربها .

لقد كنت أذكر في كل جرعة ماء الزباء ، واذكر مع الزباء « زيلي » ، وكنت أفكر فيهما بدون انقطاع ، ولست أدري ما هي الأسباب التي تقرن في ذهني هاتين المرأتين ؟ ربما أعرف السبب ، ولكنني أحاول التعمي عنه لرغبة أو باعث في النفس . لست أدري . وربما كانت ناحية الأسرار التي تجل اسم الزباء هي التي تقرنها بزيلي المحجبة بالألغاز مثلها . وكنت أذهب بمخيلتي بعيداً فأتصور أن روح الزباء عادت إلى الحياة فتقمصت جسد « زيلي » ، وأني سأكون قريباً في مشهد تاريخي حيث يرتفع في جوف الصحراء عرش لزيلي كما ارتفع من صحراء تدمر عرش الزباء . وكنت أتصور « زيلي »

بمخيلتي على عرشها وتاجها من الصلب كفرسان القرون الحالية ،
مرتدية الدروع وفي يدها المزرقي .

وكنت أتصورها بمخيلتي تطوف بين الأبقاض القائمة في
تدمر حين كنت قد أخذت جلستي تحت آثار القصر المنيف
الذي عدا عليه الزمان في قرى المتواضعة القائمة في طريق
تدمر ، وكنت أرنو ببصري وأتمثلها أمامي بملابس الفرسان . . .
وظللت عشرين يوماً على هذا المنوال .

وكان وكيل القرية موسى أفندي يظن أن نفسي عافت
سكون القرية فيرغبني في أن أذهب لحمص أو أن أزور آثار
تدمر أو أخرج للصيد . وكان يغربني بأن أشاهد رقصات
الفرنسيات وبنات يعرب في مدينة حلب ، وهكذا كانت
تمضي أيام حياتي في « عين الزباء » ! ثم ما لبث صاحبنا أن
أخذ يحذثني عن البذور وأسعار الغلال وما يمكن أن نفعله هذا
العام لاستغلال الأرض ، غير أنه لاحظ أخيراً انصرافي عن
حديثه ، فانسحب بظرف الشراكسة ، ولم يعد يطرق هذه
المواضيع ، ولم يكن يأتي إلى جانبي إلا حين أناديه .

وكنت أعيش منفرداً في هدوء وسكينة وأجلس الساعات
الطوال أغرق في تأملاتي بين أنقاض القصر المنيف القائم على
مقربة من قرينتنا . وكنت في جلستي هذه ، حيث يلفح

وجهى الهواء الساخن وتشوى رأسى الشمس المشتعلة ناراً فى الصحراء ، أحس بغمرة تستولى على فأجد ما يبرد حرارة الجو ويخفف أشعة الشمس المحرقة . نعم ، كنت أحس بغمرة حين كنت أتمم على غير وعى باسم « زبلى » !

لقد سيطرت الزباء باسمها على هذه الأصقاع نيفاً وألفاً وسبائة وستين عاماً ! وكانت تبدو لى مقترنة باسم « زبلى » التى عرفتها ولاقيتها على ظهر السفين التى لم يمض على فراقها لى أكثر من عشرين يوماً وإن أحسستها كعشرين حولاً ! وكنت فى جلستى تحت الأنقاض لا أجد ما يشغل ذهنى غير التفكير فى الزباء وزبلى !

وكنت آوى إلى حجرى وتحت أضواء المصباح الذى ينيرها كنت أرمق الصحراء التى تمتد مع امتداد البصر وتتسع أمام نظرى إلى حيث لا نهاية ، وكنت أحس وأشعر بالفراغ إزاءها كما يحس الإنسان إزاء ميت !

ولهذا كنت أعمد إلى إطفاء المصباح والاكتفاء بشمعة يترجرج ضوءها فى ظلام الحجرة فأبغى هدوء النفس وسكينة المشاعر فى ظلالها المتموجة ، وكنت أغرق فى تصوراتى وأقيس زبلى بالزباء ، وأقضى الأيام هكذا فى صورة واحدة من الخيال والتصور ، حتى انتهت بى الأيام إلى اليوم السابع والعشرين من

كانون الأول (ديسمبر) ، وكان أمامي أربعة أيام ليأتني خبر « زيلي » وموعد اللقاء وكنت واثقاً أنها ستطلبني لحاجة لها عندي مجهولة الموضوع والأغراض . لأنها حين ودعتني في ميناء بيروت كانت وكأنها عارفة بما يجول بخاطري عنها فقالت : امح يا صاحبي من مخيلتك ما يجول بذهنك حولي من الأفكار السوداء ، فلست أعمل لحساب أحد ولا لحساب أية دولة ، ولست عدوة شعبكم ودولتكم بل إني صديقة لكم وربما مددت يدي أرجو مساعدتكم أنتم الأتراك .

وكان كلامها هذا باعث الطمأنينة والقناعة في نفسي من جهتها ومن جهة أغراضها . وكنت في قناعتى أنتظرها ، راقماً ذلك الطريق الذى يؤدي إلى القرية . وكانت القوافل تبدو لنظري من بعيد وهي آخذة طريقها في زاوية تمر بجوار القرية كأفعوان ينساب في الوادى الممتد ، وكان الجو المقبض المظلم قد تفتح بعد أن أمطرت السماء وابلاً مدراراً أياماً ، والطريق الذى يمتد وراء الأطلال إلى حمص قد اخضوضر بحشيش الأرض وبنبتها الزاهر ، وشعرت لأول مرة بأن قرية عين الزباء تقع على حد فاصل بين موات الصحراء وحياة العمران . وكانت ليالى في القرية مقبضة ، فقد كانت ليالى إنسان مدنى في عالم موحش . والشمس في جوف الصحراء

كأنها قيدت ، ولهذا كان منظرها مقبضاً بعكس ما كانت تبدو في ما بين أرز لبنان أو فراديس سورية الطليقة . وكنت أذهب بخيالي إلى سورية ولبنان وأضواءهما الصناعية في الليل ، حيث تتلأأ مدائنهما كنجوم في الظلام الذي يلتقي ستائره عليها ، وكنت أرنو من نافذة حجرتي إلى القرية في الليل فلا يبدو أمامي غير بضعة مساكن حقيرة ، وحانوت بدال هو المركز الوحيد لتبادل وسائل العيش هنالك .

وذات ليلة أحسست ميلاً للشراب ، فأشعلت النار في المدفأة وأطفأت المصباح واستلقيت على فروة الغزال في جانب من الحجرة . وتحولت الأضواء التي بزجاجة الخمر إلى رأسى فسرت في دمي فأشعلت في النار وبعثت في الحمرة شعوراً عجيباً في أن « زيلي » قد سخرت مني وكذبت علي في وعددها . وفجأة ذهبت بخيالي إليها وأخذت أتساءل أين هي الآن ؟ وبمن هي مشغولة ؟ وفي أي بقعة في جوف الصحراء ؟

ورنوت يبصرني إلى الخارج من النافذة وغفوت ، وما استيقظت إلا والشمس قد أشرقت عن يوم جديد ، فقممت وفي نيتي أن أقذف بنفسي في جوف الصحراء أبحث عنها وأسأل حتى أظفر بلقائها . ولكن كما كنت أفعل كل يوم ذهبت إلى أطلال القرية وجلست أرنو إلى الطريق أنتظر ورود خبرها !

* * *

غداً آخر الشهر

ولمقابلة كل الاحتمالات أرسلت موسى أفندي إلى المدينة
يستجمع لي ما ينقص الدار ، فربما تأتيني هي بدلا من أن
يأتيني خبرها المجرد .

واليوم آخر الشهر ! . . .

وعلى غير ما كنت أظن شعرت بأن أعصابي ساكنة ونفسي
مطمئنة .

جلستُ أقص أظافري وأزيل شعر ذقني وأتزين . وأخيراً
مضيت إلى الأطلال ، وبدت لي من بعيد سيارة . . . من
طريق حمص وخلفها عربة « كميون » . . . وكما ظهرت السيارة
وخلفها عربة « الكميون » في الأفق ، في المسالك التي تصل
حمص بتدمر اختفت في الأفق . . . فأويت إلى الدار حيث
عزمت على تناول وجبة الغداء وكنت مشغولاً بفتح علبة
الأناناس . . . وفجأة دخل عليّ موسى أفندي وقال إن
السيارة التي بدت في أفق القرية أخذت طريقها إلى هنا .

وأحسست بشعور طاغ على وفقدت إرادتي . غير أنني
ذهبت أنظر متجلداً من النافذة إلى السيارة التي تقرب من القرية
وانتهيت بأنظاري إليها حين وقفت في الساحة ، وأسرعت

الخطا أجرى وكأني أخطف السلام في النزول خطفأ ، سائلا
 نفسي : من الذي بالسيارة ؟ ومن الذي سألقاه ؟ . . . وفجأة
 كنت أمام السيارة حين فتح بابها ونزل منها . . . لحية طويلة
 ورداء أسود ، فتسمرت مكاني . غير أنه ابتسم لي فاضطرت
 أن أبتسم وأشار إلى أن آخذ طريقى إلى السيارة قائلا : تفضل .
 إن زبلى تنتظرك في تدمر .

٦

كان الكاهن شمعون جالسا بجانبى فى شىء كثير من
 التحفظ والاحترام . والكاهن شمعون هو ذلك الرجل الذى
 تحدثت عنه كثيرا حين كان فى صحبة « زبلى » على
 الباخرة ، وكان هذه المرة قد وضع على رأسه العقال وكوفية
 سوداء . . . وكانت السيارة تمضى بنا خبيبا فى جوف الصحراء ،
 وكانت بى الرغبة أن أسأل رفيقى فى هذا السفر عن أشياء
 كثيرة ، تتعلق بشخص « زبلى » وأغراضها ، ولكنى كنت
 أحجم حين كنت أدقق النظر فى ملامح رفيق السفر فلا أرى
 فيها ما يشجعنى على السؤال .

كانت السيارة تمضي بنا في طريق تدمر ، وكان يبدو
لناظرنا على بعد بضعة مئين من اليارات عين ماء وبضع نخيل ،
وعلى مقربة منها بعض أشجار الرمان يتدلى ثمارها من غصونها .
وراء هذه العين والنخيل والرمان قرية متواضعة ، بدت بقربها
وكأنها قائمة على حفاني عين الماء ، بل إنه ليغريك الخيال
أن تتصورها قائمة في وسط العين ، جزيرة وسط الماء .
وأخذت القرية وعين الماء والأشجار والنخيل والرمان
والكروم تقرب منا حتى لقد شعرنا أن لن تنقضي بضع ثوان
حتى نكون داخل القرية ، غارقين في العين . واستولى علينا
شعور الخطر ، ولكن فجأة بدا الأفق لناظرنا ممتداً إلى ما لا
نهاية له ، وغابت القرية بمراثيها من أمام ناظرنا كحلم جميل .
هذا هو السراب !

وطلعت في شيء من الصعوبة على الأضواء الأخيرة
التي تركتها الشمس وراءها بعد الغروب ما خط على لوحة
سوداء تعترض جانب الطريق : « طريق بالميرا - الكياومتر ١٦ » .
وكانت السيارة قد أضاعت مصابيحها . وهي ترتقي بنا
نجداً ؛ وفجأة تألقت أمامنا الأضواء ؛ وبدت في ظلال غابة
من النخيل لناظرنا مجموعة من الأقواس والطاقات والأبراج .

وكانت أضواء السيارة أينما وقعت تكشف لنا مشاهد ورسوماً أقامها الخيال في الظلام ، تتألق تحت أضواء السيارة تألق قطرات الماء في جو ممطر انكشفت سماؤه عن شمس أرسلت أشعها فتحللت إلى الأطياف الأولى . وأخذت السيارة طريقها في هذا الجو الساحر حتى انتهت إلى ساحة منكشفة للبصر تقوم فيها بناية من دور واحد . وقفت السيارة أمام هذه البناية ، واستقبلنا على مدخل الدار خادم ارتدى « السموكنج » الأبيض .

وخطوات خطوات قليلة ، وارتقيت بضع درجات ، وإذا بنفسى في رحاب الفندق . وأشار لى الكاهن شمعون أن أجلس على إحدى الأرائك ، وكان في إشارته معنى التريث والانتظار حتى يبلغ سيده خبر قدومى . واختفى الكاهن من أمامى في داخل الفندق . وكنت في جلستى لا أحس بأى شعور يغالب أمرى ولا بأى فورة في الإحساس .

وبدا في إحدى الجنبات الكاهن وهو يشير لى أن أتبعه . ومضيت ، هو أمامى وأنا خلفه ، في وقار طبيعى مستول على كلينا ، يذكرنى بالتشريفات في العصور الخوالى ، حتى انتهى إلى مقصورة فطرق بابها ، وبناء على الجواب الذى انتهى إليه أفسح لى الطريق ، فإذا « زيلى » تبتسم وقد وقفت تنتظرنى .

وتجادلت بكل ما في " من قوة حتى لا أرتمي على أقدامها :
وألقت إلى « زبلي » كلامها : إن الروح الإنسانية لا تموت
وإنها خالدة ، وإن ساحة فعاليتها ملايين الخلايا التي لا عداد
لشكلها .

ومضت في حديثها تكمل كلامها متحدثة إلى " باللغة
الفرنسية : لن أتحدث إليك عن نظريات ما وراء الحياة والنفس
كما عرفها البراهمة والبوذيون وفراعنة مصر ، كما أني لن أتحدث
إليك عن آراء فيثاغور وأفلاطون ، لأن ما قالوه يعتبر اليوم من
المسائل الكلاسيكية ، وإنما أسوق لك آراء العلماء المعاصرين
الذين يعتقدون عن علم بأن الروح خالدة لا تموت ، وأنها
تتقمص مختلف الصور ، فهذا فورييه « Fourier »
وبيير ليرو « Pierre Leroux » وجان رينود « Jean
Reynaud » والفيلسوف الشاعر موريس ماترلنك « Maurice
Maeterlinck » من المؤمنين ببقاء الروح . وكلمة مبحث وراء
النفس « Meta Poistique » من إيجاد العالم الفرنسي البروفسور
ريشيه « Richet » ، وهذا المبحث يؤمن بصحته الملايين في
العالم ، وأصبح موضوعاً شاغلاً لنفر من أجلة العلماء وهذا
المبحث استقل عن دائرة الروحانيات « Soritualism » في العصور
الأخيرة تحت جهود هؤلاء العلماء .

وتحت إحساس « زيلي » باستغراقى فى موضوع حديثها
 ابتسمت لى وحاولت أن تخفف من جدية الموضوع فقالت : لقد
 قال لى مترلنك منذ شهرين حين تقابلنا فى بلاج أوستند : « يجب
 ألا ننسى هذه الصلة الّتى تقوم بين أرواحنا وأجسادنا ونحن
 أحياء ، وكيف تؤثر أرواحنا على أبداننا ، ومن حيث نحن
 نسج من الأموات فسيأتى الوقت الذى تستجوب هذه الأرواح
 الّتى فى دخيلتنا ، ووقتئذ سنعرف حقيقة الإنسان الداخلية . »



كنا نتجاذب هذا الحديث فى صالون الفندق حيث
 جلست إلى « زيلي » وحدها حول مائدة زينت فى شىء كثير
 من الكلفة ، وكان فى زهرية فضية بعض الأزهار الّتى لا أشك
 فى أنها استحضرت خصيصاً من لبنان ، وقد مدت كؤوس
 الشراب أمامنا على المائدة ، ووضعت بعض الثمار الطازجة فى
 الثلج . وهكذا كنت أنا وزيلي على المائدة جنباً إلى جنب
 ننتظر الدقائق الأخيرة من دورة كرتنا الأرضية لنتم عاماً
 ولنستقبل معاً عاماً جديداً . . . لست أدرى ماذا يخبئ لنا
 فى طبياته !

وكانت زيلي تحدثنى وتقول : إن مترلنك اليوم يؤمن
 ببقاء الأرواح ، ولكن الأرواح الباقية حسب اعتقاده تعيش

في فضاء معتم في حالة أشبه بحالة السكرى ، وهي في حياتها أشبه بجموع الأسماك حين تدور من حول الطعام في دوراتها من حولنا نحن أنصاف الأحياء والأموات . والتجارب الأخيرة في الاتصال بالأرواح قد أثبتت من أجوبة الأرواح مقدار ما هي عليه من تردد وعي وبلادة فهم وسقامة تفكير وقصور ذكاء . نعم ، أثبتت التجارب مقدار ما عليه الأرواح من تعب وملال وسأم في حياتها المجردة . ولسنا ندرى أتبدأ هذه الأرواح حياة جديدة أم تأخذ طريقها للاندثار ؟ ويخيل للبعض أن الأرواح تغل ذاكرتنا في الحياة وأنها بقايا مشتتة من إحساساتنا في الدنيا ! ونحن نلمس بأنفسنا حالات الأرواح وهي أشبه ما تكون بحالة طفل صغير فتح عينيه فجأة في نور قوى غلاب ، فكان لذلك رجوع في عينيه فلم يبصر شيئاً من حوله ، ولست أدري أنخطو جميعاً خطواتنا لمثل هذه الحياة ؟

إني على ما أرى وأعتقد أن الأرواح تنتقل من قالب حى إلى آخر ، وتفضى حيناً في كل قالب من هذه القوالب الحية . وحياتها الدائمة في التنقل من قالب لآخر . وفي هذا وحده أجد أصح حل لمشكلة الروح الإنسانية ، وإني إن كنت أعتقد بعلم ما وراء النفس البشرية فذلك لاتفاقها من جهة مع أوليات العلم ، ولاتفاقها من جهة أخرى مع أسس عقيدتى الدينية . . .

وأظن أنه ليس هنالك ما يجعلني أخفي عليك شيئاً يجب ألا يخفى ، وذلك أني « ابنة يزيد » .

وفجأة تركت قُدح الشراب الذي كان في يدي بعد أن كنت قد قربته من شفتي ولم أحس وقتئذ بما انطبع على وجهي من نظرات الدهشة وقلت لها : أتعنين أنك يزيدية ؟ وأنتك تنتسبين للجماعة ؟

فأجابت : نعم ، إنني يزيدية ولكني في الوقت نفسه ابنة يزيد التي تنتسب له تلك الجماعة . ولأن صوتها وقالت : وإني قائمة الآن بتخليص هذه الجماعة من قبل أبي الذي في السماء !

ثم ذهبت في تصوراتها ، وذهبت أنا في تأملاتي ، وخيم علينا السكون حتى كنت أسمع دقائق الساعة التي في جيبي .

وفجأة قطعت هي حبل السكون حين جمعت أفكارها وألقت على هذا السؤال : ما هي معلوماتك عن اليزيدية ؟ فكانت إجابتي : تكاد تكون لا شيء . . . أو بعض الشيء من باب التجوز .

فقلت : أليست أشياء سيئة جداً ؟ كالاعتقاد بأن الشيطان هو الله ، وعبادة الطاووس ، واجتماع مئين من الرجال والنساء ، وإطفاء الأنوار ، وارتكاب الفحشاء . . .

فكانت إجابتي : نعم بعض أشياء من هذا القبيل . . .
 فقالت : الحال أننا نؤمن برب للعالمين ، واحد حق ،
 أوجد الدنيا والعالمين بقدرته وإرادته تماماً كما يعتقد المسلمون
 والنصارى واليهود .

وكنت أنا في دهشة من سرعة تحول «زيلي» الأرجنتينية إلى
 «زليخا» اليزيدية أكثر من دهشتي من أمر عقائد اليزيدية .
 وفجأة سألتها : على ما أعرف أن مركز العقيدة اليزيدية هو
 الشرق القريب ، ولكنك أنت تأتيين إلى هذا الشرق من أقصى
 بقعة في الأرض . ولست أدري أهذا أيضاً حادثة من وراء
 عالم النفس أو نتيجة لمثل هذه الحادثة ؟

فكانت إجابتها على هذا التعريض في كلامي : إذن
 ليكن حديثي معك أولاً عنى أنا .

وأومات إلى أن أملاً لها قدحها بخمر الشمبانيا فصدعت
 لإيماءتها ومألت قدحينا بالشمبانيا ، وفي نفس واحد تجرعنا
 ما فيهما ، ثم رنوت إليها واتكأت برأسي على كفي وقد استندت
 برسغي إلى المائدة . فلما رأيت ما أنا عليه من استعداد لتلقي
 كلامها قالت : إن سنة ١٨٩٢ هي عام الدم والنار لنا معشر
 اليزيديين ، وإن كنا قبل ذلك أيضاً تعرضنا لكثير من
 الاضطهادات ، فلقد كان تعدادنا في القرن الثامن عشر يربو

على خمسين ألفاً ومائتي ألف ، غير أن هذا العدد كان آخذاً في التناقض أمام ضغط جموع الأكراد والأتراك . فإن جيوش الأتراك زحفت عام ١٨٢٨ بقيادة ملك أحمد باشا لإخماد ثورة الأكراد فنكلت بنا في طريقها ودمرت قرانا . ثم ثار الأكراد على الأتراك وزحفوا بقيادة محمد الراوندى ودمروا بلادنا وذبحوا رجالنا دون أن يعملوا حساباً لصلة الدم التي بيننا ، وساروا في حملتهم حتى أرض سنجار ، ولم يتركوا بلادنا إلا بعد أن تركوا صفحة سوداء في تاريخنا المظلم . ثم كان عام ١٨٣٥ فأرسل الباب العالي في تركيا قواته فاستعانت بنا لكسر شوكة الأكراد غير أن هذا كان لحين ، ففي خلال أعوام ١٨٤٣ - ١٨٤٧ كان للكرد ثورات ، وتعرضنا نحن والنساطرة لهجومهم ولست أريد أن أتحدث إليك عن تاريخنا الذي اصطبغ بالدماء ، إنما كل ما أرغب فيه أن أضع أمام عينيك صورة من المصائب التي تنزل بشعبى المسلم من الشعوب الخجورة . وكل ما يمكننى أن أقوله إن تاريخنا عبارة عن ضربات متواصلة تنزل على رؤوسنا . وكانت آخر هذه الضربات تلك التي ضربها عمر باشا الذي رغب أن يقضى على اليزيديين نهائياً ويزيلهم من عالم الوجود . لست أحب أن أخوض لك في المذابح التي قامت في كل بلادنا وكنا نحن ضحيتها ، وأنت نفسك لمست

بيدك قوة المذابح التي تقوم ضد الأقليات على ما رأيت في حروب الاستقلال وفي مذابح الأرمن ، وخلاصة القول أن عمر باشا تمكن أن ينزل بعددنا إلى حوالى الخمسين ألفاً . أما المائتا ألف فجعلهم في بطون الثرى في ذلك العام المشؤوم . واضطر نحو خمسة عشر ألفاً منا أن يعتنق الإسلام أو قل يتظاهر بذلك ، ومثل هذا العدد اعتنق المسيحية أو تظاهر بها ، وكان من الأخيرين أو قل على رأسهم والدى الأمير على .

ولم يكن والدى الأمير على من الذين تظاهروا باعتناق المسيحية فقط ، إنما انغمر في جمع من المهاجرين وركب البحر إلى الأرجنتين . وكان في ذلك الوقت في الثانية والعشرين من سنى حياته . كان طويل القامة ، عظيم الهيكل ، صاحب إرادة قوية وذكاء خاطف ، والحظ هو وحده الذى وضعه في مكانته . وجعله ينزح إلى ساحة يمكن أن يعمل فيها في دائرة حدود تعاليم دينه ، وأغنى بذلك الاشتغال بالزراعة أو تربية الحيوانات ، وهما الصناعتان اللتان تصرح بهما الديانة اليزيدية ، وليحمل عنا ما نزل بنا من مصائب اضطرتنا إلى خروجنا على تعاليم ديننا ومحاولتنا التمسك عن غير طريق الزراعة أو رعى الحيوان المستأنس . وهذا اعتقاد راسخ عند كثيرين من أبناء عشيرتنا . ولقد غرق والدى في عمله في اليمباس ، وكان من نسل

شعب يجري في عروقه الاشتغال بالزراعة ورعى الحيوان .
 لهذا سرعان ما نجح في دائرة عمله ، لا سيما أنه كان يشتغل
 مؤمناً أن عمله إيفاء لبعض واجباته الدينية ؛ وهكذا تضافر
 عنده العزم والإيمان فكان نجاحه باهراً . وأصبح من كبار
 الملاك المزارعين ، وكانت له المراعى التي تمتد مع امتداد
 البصر ، حيث يربى قطعاناً من الغنم غير محصورة العدد ،
 وكانت هذه القطعان في مراعيه أشبه بأعواج البحر التي
 تصطخب ، وكانت أصوافها تلمع في الضوء كالزبد الذي
 يعلو أعواج البحر ، وكان له بجانب قطعان الغنم حظائر تربي
 فيها الخيول والأبقار والجاموس . ولا أحب أن أتوسع في الكلام
 عن دائرة أعماله في تربية الحيوانات ، وإنما أحب أن أقول :
 إنه أصبح في أواخر أيامه ، أى منذ ثلاث سنوات ، من أبرز
 أعضاء مجلس النواب في الأرجنتين .

هذا هو أبى الذى كان يعرف في الأرجنتين باسم السنيور

ألفونس ديلا يزدى !

ولم يترك السنيور ألفونس وريثاً غير فتاة واحدة كانت
 تتلقى العلم في الجامعة ، غير أنها تعلمت اللغة الكردية من
 والدتها التي لم يستقم لسانها على التكلم بالإسبانية فبقيت
 تتكلم بالكردية في بلاد الغربية . ومن والدتها ومن خدمها نجحت

في أن تتفوق في معرفة اللغة الكردية .

وأنت تعرف أن الأكراد يصغرون الأسماء التي يأخذونها من العرب فيصبح اسم فاطمة في لغتهم فاطو كما يتحول اسم عائشة إلى عاشو وزينب إلى اسم زينو . وكان اسم فتاتنا زليخا فكان تصغيرها سيباً في أن تنطق زيلو ، ولكن هذا الاسم أصبح « زيلي » انسياقاً مع الروح الإسبانية .

وأنت ترى أن ما أوجب لك الحيرة ، ليس سوى نتيجة طبيعية لما جرى من الشرق الأدنى إلى أقصى عالم الغرب ، ولا شك أن ما كان لي من المركز السياسي والمالي في الأرجنتين جعل لي موقعاً ممتازاً بين المهاجرين السوريين واللبنانيين الذين يذهبون إلى أمريكا ، ويستقرون فيها ويكونون لأنفسهم ثروات ضخمة وأسماء تطير في عالم المال .

• • •

وقامت زيلي من مكانها وأزاحت الستارة ورفعت زجاج النافذة فانكشف لبصرى ما وراءها ، وسرى الهواء في الحجرة محملاً بنسيم الليل العليل وأريج الزهور البرية ، وكان كل ما حولنا صامتاً ، وكانت زيلي تنظر من النافذة إلى الخارج وفي الوقت نفسه تقول لي بصوت متهدج يحمل في طياته علامات التأثر : يا صاحبي ! هنالك أسطورة تنتقل على أفواه الأعراب

في باديتهم بين الخيام ، وملخصها أن لبؤة تظهر في بعض الليالي
 بين الخرائب ، وتدور بين منعرجاتها ، كأنها تبحث عن شيء
 وأخيراً تزار زئيراً كله نواح ، وتغيب بين الخرائب من حيث
 أتت . والأسطورة تقول : إن هذه اللبؤة هي روح الزباء . . .
 تقوم تنتقل بين أنقاض مدينتها ، وحينما ترى ما أصبحت
 عليه تتحسر على ماضيها فتصرخ هذه الصرخات التي تحمل
 في طياتها الألم ، والتي هي مظهر مآتمها التاريخي على مدينتها
 التالدة ! . . . هذه الأسطورة التي يؤمن بها كل الأعراب في
 هذه المنطقة ، هي عندي أفصح وأصدق صورة لعقيدة
 التناسخ .

وبدون أن تنظر إلى وجهي مدت يدها إلى كثرى على
 المائدة وتناولتها وأخذت في تقشيرها . وسألها : هل عقيدتك
 وثروتك تضعان على عاتقك بعض الواجبات نحو أبناء
 العشيرة ؟

فكانت إجابتها بالإيجاب .

فسألها : وهل قيامك بهذه الواجبات نحو العشيرة يستلزم
 وجودى كما تشعرينى ؟ وهل لوجودى بجانبك فائدة ؟
 فقالت : هذا ممكن جداً !
 فقلت لها : أنا شخص تركى ، تركت بلادى حيث

ينزل أبناء عنصرى الأتراك ، فهل يمكن بالرغم عن هذا ، أن أساعدك في أغراضك بدون أن يكون في ذلك أى ضرر لبلادى ؟

فقلت : نعم .

وكانت لا تزال مشغولة بكمثرها ، وكنت أحس ما يختلج في صدرها من الإحساسات مع زفيرها وشهيقها . فددت يدي إليها ، واحتويت يدها بين يدي وخاطبتها قائلاً : إني أقدس الصدفة التي جعلتني في طريقك والتي ستمكنني من أن أكون سبباً لخدمة أغراضك ؟

وكنت أحدثها بهذا الحديث وعيناي تبحثان عن عينيها ، وأخيراً وجدتهما وقد تشربتا بالأحلام ، وأحسست مقدار الإحساسات والمشاعر التي تختلج في صدر هذه الغادة وأبصرت عينيها وقد اتقدتا نوراً وناراً . وفجأة رأيت هذه العيون تتبلبل وتجتمع من هذا البلبل حبة من اللؤلؤ أخذت تتألق في طرف عينيها في لون الكهرمان ثم سألت . . .

وكانت الساعة الثانية عشرة . . .

رفعنا أقداح الشراب وفي جرعة واحدة أفرغناها في

جوفنا .

والآن ونحن في عزلة عن العالم المتمدن ، وعلى مقربة من

صحراء تدمر ، لم ننس عوائدنا المدنية في الاحتفال بليلة رأس السنة . وكانت الطبيعة تشاركنا الاحتفال بما ترسله من الأطياف من قلب الصحراء . وكنت أنا غارقاً في مشاعري الذاتية وإحساساتي أشاهد من قرب شريكتي في الاحتفال بليلة رأس السنة، زيلي الإسبانية التي تحولت لزليخا ابنة يزيد، التي بعثت في نفسي أملاً جديداً ومشاعر جديدة ، بها استهللت عاماً وودعت عاماً يطويه الزمن في طياته .

٧

ما استيقظت في اليوم التالي حتى أخبرني « الجرسون » بأن الأميرة تنتظرنى في معبد « الشمس » .

وبرغم أن معبد « تدمر » قد عدا عليه الزمن فأصبح خراباً ، إلا أنه لا يزال يحمل ما يورث الذكريات التي تورث الإنسان الشعور بتلك الفخامة التي ذهبت والماضي الذي اندرس . . .

وكانت خرائب « بالميرا » الباقية تحت أضواء الشمس

الأولى تبدو لناظري حاملة في طياتها كل ذلك الماضي
 المحترق . لقد كانت أضواء النهار تسبغ عليها جواً كله شعور
 بالعظمة . وكانت بلدة الزباء مجموعة من الأعمدة المرمرية ، أبرز
 بناء فيها معبد الشمس .

كنت أسير في شوارع المدينة ، التي لا تجد فيها في
 سيرك ما تستظل في فيئه ، في طريق عفر يثور في وجهك
 تراه ، في طريقى إلى معبد الشمس . وحين انتهيت إلى المعبد
 وجدت زليخا مع الشيخ شمعون على « تراس » المعبد العلوى .
 وكان الشيخ شمعون الكاهن اليزيدى غارقاً في إحساساته
 ومشاعره ، ومن هنا لم يقم حين رآنى ولم يعمد إلى محادثتى .
 كان صامتاً لا ينظر يمنة ولا يسرة ، في حالة استغراق تام .
 وبدا لى هذا الكاهن الذى كنت أظنه مسنناً للحيته ، أصغر
 منى بكثير . إنه لا يبلغ من العمر الأربعين . وقد بدا لى في
 بنيته قوياً ، عضلاته بارزة كأنها عضلات فهد أو نمر .

واستقبلتنى زليخا قائلة : إننا الآن في معبد الشمس ،
 ولقد كان أول شىء لى هذا الصباح أن أبكر بالحضور لى
 هذا المكان قبل أن يعلن الشفق عن حضوره ، ووقفت أنتظر
 شروق الشمس لأقوم نحوها بالطقوس التي تحتمها على
 عقيدتى .

ووقفت عظمة المعبود وشعورى بالرهبة فيه مانعاً دون أن
أسألها : « هل تقومين بطقوس العبادة نحو الشمس عن
يقين ؟

لقد كان لى أن أسألها من قبل عن معنى قيامها ببعض
طقوس غريبة أمام شروق الشمس حين رأيها في الباخرة ،
ولكن الحياء غلبنى فلم أتمكن ، والآن تقف رهبة المكان حائلاً
دون إلقاء السؤال . ولحظت حالتى هذه ، الفتاة وهى فى شبابها
الزاهر فنظرت إلى طويلاً ، ويظهر أنها حملت ترددى على
وجه آخر حتى قالت :

— إن عشيرتنا ، لا تبيح أسرارها خصوصاً فيما يتعلق
بشعائرها الدينية ، ولكن هذا القيد من عشيرتنا راجع لمعيشتنا
فى جو متعصب متحامل يخشى منه علينا ، ومن هنا لا أرى
مانعاً من التحدث إلى شخص من أحرار القرن العشرين عن
حقيقة شعائرتنا وأسرارها الخفية خصوصاً أنك ستكون صديقنا
ومساعدنا الأكبر ولا سيما أن المعلومات التى طلبتها عنك من
أنقرة لم تثبت غير صدق فراستى فيك .

ومددت يدى نحوها بسيجارة ، وكانت متكئة إلى
الجدار ، وكنت أتأملها وأرجع بذهنى للماضى ، فأرى الزباء
فى وقفة لها تماثل وقفها . ومن الماضى كنت أعود للحاضر

وأأمل تلك الزهرة اليانعة المتفتحة .

ولقد كنت أحس أن نظرات شمعون تخترقني ، وإن كنت معتقداً تمام الاعتقاد أنه لا ينظر إلينا . ولكن كان الشعور يغالبني ، وكنت بنظرتي كأني ألهم هذه الفتاة الواقعة أمامي ، والتي كان شبابها الغض وحيويتها الفائضة تشملي فأستغرق فيها . . . وفجأة انتبهت على قولها : لست أدري إن كان مناسباً التكلم معك في هذا المكان . لقد أتيت مع الشيخ شمعون لهذا الغرض . إنني أرغب أن أعمل على استقرار وتحرير عنصري ، وفي هذا أحب التحدث إليك . وكانت إجابتي لها : إنني أرحب بحديثك .

فضت تحدثني وتقول : لعشيرتنا التي تنزل على حدود تركيا وسوريا والعراق شعبتان في الخارج : شعبة في القوقاز وأخرى في الهند . ومجموع العشيرة يبلغ حوالي الثمانين ألفاً . ومشروعى هو جمع عشيرتنا القاطنة في سنجار في أرض مأمونة وإقامة حياة مدنية فيهم .

فكانت إجابتي لها : هذا العمل عظيم !

فضيت محدثي في كلامها قائلة : لقد درست المسألة شهوراً في الأرجنتين ، وكان أول شيء تناوله تفكيرى ، اختيار البقعة التي أجمع فيها أفراد العشيرة ، ولكن نظراً للصعوبات

التي تقوم في نقل أبناء العشيرة إلى الأرجنتين صرفت النظر عنها ، ولم تكن القيود وحدها التي وضعتها حكومة الأرجنتين على حركة المهاجرة سبباً في ذلك ، إنما كان السبب مصاريف نقل العشيرة إلى الأرجنتين . هذا فضلاً عن أن إقناع العشيرة بمغادرة سنجار إلى الأرجنتين سيكون من الصعوبة بمكان .

فعلقت على كلامها قائلاً : أليس من الأفضل أن تبقى أكثرية العشيرة في المكان التي هي فيه ثم تجمع عندها الشعب التي تفرعت منها في الخارج .

فقلت : ليت ذلك في الإمكان ؛ ولكن أحوال العراق اليوم لا تجعلنا نطمئن إلى الحياة في حدوده، هذا والحكومة الإنجليزية تقف موقف المحايد مع هذه الأقلية التي استخدمتها في مصالحها أيام الحرب يوم أثارها ضد تركيا . لهذا تراني لا أميل إلى إبقاء عشيرتي في عالم مضطرب سيكون في الغد ميدان مأس اجتماعية ودينية على حدود دولات ثلاث متباينة المشارب .

فإذا تركنا العراق إلى سوريا فمن المحتمل جداً أن يترك الفرنسيون إدارتها لأهل البلاد . هذا شيء طبيعي ، ولكن ذلك سيكون في البدء مقترناً باضطراب في الإدارة واختلاف بين سياسة الوطنيين . فسوريا قد تكون مسرحاً لاضطرابات يخشى

منها علينا . إن عشيرتي التي أرجو أن أقيمها على نظام من نظم المستعمرات الصهيونية في فلسطين ، يخشى على تشكيلاتها إذا قامت في بلد غير مستقر الأحوال . لأنها تصبح أمام أقل اضطراب في خطر جسيم . هذا فضلا عن أن مستعمرات الصيونييين في فلسطين تنتظر العاقبة نفسها في المستقبل . والمسألة تتطلب قيام العرب مرة واحدة ضد الصهيونيين ! إن عشيرة كعشيرتي لها تقاليدها وطقوسها الدينية التي ينظر لها من جمهور أكثرية أهل الشرق الأدنى على أنها كفر وخروج عن الإسلام ، لا تجعل لنا حياة مستقرة بين أكثرية مسلمي الشرق الأدنى .

فأجبتها عن آرائها قائلاً : نحن الأتراك نتمنى لخيرائنا ، وكل الأقسام المستعبدة تحت نير الاستعمار ، كل خير ، وخصوصاً لتلك الأجزاء التي انفصلت عن الإمبراطورية العثمانية ، غير أننا نرى أن مقدرات هذه الشعوب مرتبطة بالحالة الدولية للبحر الأبيض المتوسط .

فعلقت على كلامي قائلة : ولهذا تجدني لا أرغب في العمل على استقرار عشيرتي في هذه البقاع ، حيث تتصادم مصالح الدول العظمى . ولا شك أن الوسيلة الوحيدة التي ستجدها هذه الدول للتداخل هي تشويق الأقليات للثورة ضد الأكثرية ثم التداخل باسم الأقلية لحمايتها . . . في مثل

هذه البلاد لا أطمئن على مستقبل عشيرتي وأبناء عنصري .
 فهززت رأسي موافقاً ، وابتسمت هي لموافقتي على
 رأيها .

• • •

نحن الآن نتمشى بين خرائب تدمر ، ونحدث إلى بعض
 عن وسائل تحقيق غايات زليخا التي تدور حول فكرة تحرير
 أبناء عشيرتها . وكنا في تجوالنا قد اقتربنا من نطاق بهو معبد
 الشمس ، ذلك المعبد الذي عملت فيه يد التعمير فأرجعته
 أثراً يحتفظ بقيمته التاريخية . وفي هذا السبيل عملت حكومة
 الانتداب الفرنسي على هدم الدساكر التي أقامها العربان
 داخل نطاق المعبد ، وحملتهم بعيداً عنها ، وما لبثت يد العناية
 أن فعلت فعلها فرفعت أكوام التراب والأنقاض وأصبحت
 أعمدة المعبد العظيم ظاهرة بعد أن كانت مغمورة تحت تل
 من الأوساخ والتراب . وكانت صاحبتى تحاول أن تلقى بعض
 النور على ذهني من جهة التاريخ اليزيدي . وكانت فكرتها
 تدور على أساس أن أكثر ولايات تركيا تحتاج إلى سكان
 مهاجرين يعملون على إصلاح أراضيها واستغلال ثمراتها
 وخيراتها الزراعية والمعدنية . وهي تستند على مشروع الحكومة
 التركية في نقل جموع الأتراك النازلين في البلقان والبلدان

الخارجة عن نطاق الجمهورية التركية إلى الأناضول ، وتقديم الجمهورية لهم كل التسهيلات للإقامة والعمل ، لتبرر هذه السياسة وتمهد السبيل لفكرة نقل اليزيديين إلى الأناضول . وهي مبدئياً ترغب في قطعة أرض من أراضي تركيا تقيم عليها مستعمرة يزيديية .

وكان يظهر من كلام محدثي أن كل آمالها منعقدة على نجاح هذه الفكرة حتى ترى أبناء عشيرتها سعداء مطمئنين في بلد متمدن كتركيا .

وفجأة مالت زيلي نحوى وقالت : لكم أتمنى أن أنقذ أولاد عشيرتي ، وكم أرغب أن تكون لهم المدارس ذات الحدائق وكم أحزن لأن أراهم كلهم في طراز واحد من اللباس لست أعلق شأننا كبيراً على اللغة وماذا تظن لغتنا ؟ إنها لهجة من الفارسية ، وإني لأشعر أن مشروعنا لو نجح لقبلت اتخاذ التركية لغة أساسية في المدارس ، حتى تصبح لغة العشيرة ، فيندمجون في كيان الشعب التركي .

وجلست أنا وهي على « تراس » الفندق نتناول وجبة الغداء . وكانت زليخا في نشوتها تحدثني قائلة : أشعر أنه من اللازم أن أتحدث إليك عن بعض أساطيرنا الطريفة ، وخرافاتنا العجيبة . فمثلاً أسطورة الطوفان تأخذ في عشيرتنا وضعاً يختلف

عن وضعها عند الشعوب الأخرى . ذلك أنها تقرر أن مياه
الطوفان لما أخذت في الانحسار عن الأرض ، واصطدمت
سفينة نوح بصخر ناشئ من الثرى ، باتت السفينة ومن
فيها في خطر . وسأل نوح : من ذا الذي يسد الثغرة التي
أحدثتها الصدمة بالسفينة ؟

في ذلك الوقت تقدمت الحية إلى نوح قائلة : أنا . . .
ولكن على شرط واحد ، وهو أن تجعل لي حقاً في ابن آدم
أمص دمه . . . وقبل نوح عرض الحية مضطراً وفي نفسه
أمر . فلما زال الخطر عن السفينة وأهلها تقدم نوح من الحية
وقبض عليها وأشعل ناراً ورماها فيها فاحترقت ، وأخذ رماها
فذراه أمام الريح . ومن رماه الحية تولد البعوض . . . ولهذا
تجده يمتص دم الإنسان .

فقلت لها : حسناً يا آنستي ! ولكن لا بد أن عندكم
بعض الأساطير التي تدور حول فكرة تناسخ الأرواح .
فأجابتنى قائلة : نعم ! نحن نعتقد أنه بعد وفاة أحدنا
والقيام بشعائر دفنه تبقى روحه شريفة تبحث عن مكان تأوى
إليه . وتظل في شرودها تائهة ترف حتى تستقر في جسد جديد .
فمثلاً نروى أن أحد مشايخنا الكبار بقيت روحه ترف على وجه
بحيرة راكدة بعد موته . في ذلك الحين كانت ابنته العذراء قد

ذهبت بجرتها إلى شاطئ البحيرة لتملأها ماء ، فلما ملأتها شربت منها جرعة أو جرعتين لتطفىء نار عطشها . وفي خلال تجرعها الماء لبسها روح والدها فحملت ، وظلت تحمل الجنين في أحشائها تسعة أشهر ، فلما وضعت الوليد كان الأب قد لبس صورة الحفيد !

وهزرت رأسي متعجباً ، وقلت : وهل الخمر مباحة عندكم ؟ ... فأجابتنى نعم ، وكثير من فلاحي قرانا يجتمعون في مآدب يشربون فيها الخمر ، غير أن شرب الخمر ليس عادة راسخة من عادات شعائرتنا . وشربها لا يتعدى بعض المواسم عند المزارعين من أهل قرانا .

وبدا لناظرنا من بعيد قوة من ركاب الهجان يتقدمون نحونا ، ومرت من أمامنا ، غير أن كل الرؤوس كانت تدار نحونا والعيون ترمق « زيلي » باحترام ، كأنها فصيلة من فصائل الشرف تمر من أمامها تحييها ، وأحسست بالخوف يدب إلى فؤادي ، بدون أن أجد الصلة بين الحلم الذي أنا فيه ومرور القافلة أمامي .

وكأنني أريد أن أستمد من قدح الشراب الذي أمامي القوة على التغلب على هذا الضعف النفسى الطارئ ، فمددت يدي وشربت ما فيها في جرعة واحدة .

سألني الشيخ شمعون : هل جواز سفرك يبيح لك دخول العراق ؟

وكانت إجابتي له بالنفي . فصمت محدثي هنيهة ثم قال :
ومع هذا يمكننا أن نجتاز بك الحدود بكل سهولة !
ومضى إلى حجرة زليخا دون أن يقول شيئاً آخر .

غداً ستمضي إلى جبال سنجار . وسوف يروني الحياة التي يعيشها اليزيديون في هذه الجبال . حتى تتولد في نفسي الطمأنينة ، وأعمل على إقناع إخواني ومواطني بفكرة « زليخا » ، وهي أن تقيم مستعمرات في الأناضول لليزيديين . هذا وزيلي نفسها كانت قد أخذت على الشيخ شمعون شرطاً ألا تقوم بآية محاولة من أجل عشيرتها قبل أن تدرسهم عن كذب . ومن هنا اتفق السبيل بيننا وإن اختلفت الأغراض والبواعث . كان السبب الجوهرى في وعدها أن تقابلني بعد شهر من نزولنا البر ، هو أن تقوم بجولة في بلاد العشيرة وتنبئ من هذه الجولة إلى فكرة ، وعلى ضوءها تحدد موقفها معي .

كانت نيتها قد اتجهت إلى أن تودعني في تدمر وتعود إلى
 الأرجنتين في حالة انصرافها عن غرضها . وهكذا وضحت لي
 أسباب سعة معلوماتها عن الشرق الأدنى من جهة ، واهتمامها
 بي من جهة أخرى . فإن ربان الباخرة « مارييت باشا » رسم
 لها صورة قوية عني ، ومع هذا أرادت التأكد من صحة المعلومات
 التي ألقاها إليها ربان الباخرة ، فكتبت إلى الملقح التجاري
 لحكومة الأرجنتين في الشرق الأدنى ، يوم أن نزلت بيروت ،
 تسأله عن كل ما يعرف عني . وتسلمت منه رداً بعد عشرين
 يوماً . وكانت وقتئذ في الموصل . وعلى هذه الأسباب اعتمدت
 هي بعد شهر من الزمن أن تفتحنى في أمر أغراضها وتكشف
 لي السر عما يختلج من رغبات في صدرها . وهكذا كان تكيف
 الدور الذي قمت به إلى هذه الساعة في مسرح إقامة الوطن
 القوي للعشائر الأشورية في العراق في وطني تركيا . وكنت
 أحس بأنني لا أجد في نفسي الدافع الكافي للمغامرة في
 مشروعها ، وكانت الشكوك تتابني وتتقاتل في نفسي ،
 ولا تجعل لي مجالاً للاقتناع . وكثيراً ما كنت أحاول في تلك
 الأيام أن أغالب شعوري وأقول : من يدري ، فربما ينجح
 مشروعها إذا رأيت الأشوريين ودرستهم عن كثب ، وقمت
 بمحاولة في نطاق أغراضها .

ولكن لم تكن هذه المغالبة إلا نتيجة لوجودى بجوارها .
 وهذا وحده هو الذى كان يجعلنى أتغلب على كل ما يخالجنى
 من الشكوك . ولكنى كنت أحاول ألا أرتكب إثماً معها بتحديد
 فكرة قد لا أتمكن من أن آخذ دورى فيها ، ومن هنا كانت
 اعتراضاتى دائماً ، ولكن إلى حد لا يقطع من نفسها آمالها ،
 وإنما يجعلها تروى . وكانت كلمتى الأخيرة وفقاً على ما أخلص
 به من نتائج من مشاهدة العشائر اليزيدية عن كتب ، وكان
 كل ما فى يدفغنى للقيام بمثل هذه المغامرة ، لأنها ستكون
 بجانبى ، وكانت بنت يزيد بجوارى فى هذه اللحظات التى
 غرقت فيها فى تأملاتى تحاول أن تعطينى فكرة عامة عن الرحلة
 التى سنقوم بها فى الصباح الباكر من الغد .

وقبل أن تغادر الشمس مكمنها الأزلى ركبنا السيارة ،
 وكان مجلسى بجوار زليخا ، وكان مجلس الشيخ شمعون بجوار
 السائق . وكان السكون يخيم علينا ، ولا نقطعه بكلمة أو
 حديث . ومن يدرى فربما كان النوم يداعب أجفاننا ،
 والحقيقة أن سنة من النوم كانت قد طغت علينا جميعاً ،
 ما عدا السائق بالطبع . . . ولست أدري بعدكم من الوقت
 فتحت عيني فرأيت فى السماء لوناً من الزرقة ، المختلطة بحلقة
 الظلام . كان الصبح فى ساعة الميلاد . والهواء الذى ظننت

أنه شفاف للوهلة الأولى ، بدا يحمل ضباباً خفيفاً ، كان رطباً ، والسماء تغشاها بعض الغيوم في لون الرماد وبدت الصحراء الحقيقية في تجردها وصلابتها تحيط بنا ، وفجأة أدار السائق رأسه لنا وقال : الغزال ! وأشار بيده إلى نقطة متحركة في الصحراء .

وبدا في الأفق رهط من الغزلان . ما إن أحسّ بنا ، حتى رفع رعوسه يرقبنا بعد أن كان يرعى كلاً الأرض . وكانت هذه الحركة إجماعية كأنها صورة المصلين يرفعون رؤوسهم إثر الانتهاء من السجود . وبدا رهط الغزلان مديراً لنا ظهره ، منطلقاً في حركة واحدة . واستقر بعيداً عنا ، ووقفت جموعه منتظمة وكأنها فصيلة عسكرية .

وقطع على خواطري هتاف القافلة كلها : ها هو ذا الفرات !

وبدا الفرات ، ذلك النهر العظيم ، كحية رقطاء استقرت في جوف الصحراء . . . وذهبت في سبات عميق .

وانتهينا إلى دير الزور ، وتزودنا منها بالماء والوقود من باب الاحتياط وانطلقنا . ودير الزور هذه هي العاصمة الحقيقية لبادية الشام لأنها الجزيرة الكبرى وسط بحر الصحراء المتلاطم .

وبعد لحظات من قيامنا من دير الزور عبرنا الفرات على
 جسر معلق ، وبذلك دخلنا أرض الجزيرة ؛ حيث قامت
 دولة آشور ومدنية نينوى ، كنا قد أخذنا نطوى الطريق
 من بلاد الزباء لبلاد سيمراميس . ما أعظم تلك الشعوب التي
 لها من نساءها أبطال في تاريخها المندثر ولو على أساس
 خرافي ؟

وجلسنا نتناول غداءنا ، وكان لهذه الوجبة شأن في حياتي .
 لا شك أنني لن أنساها . وكنت مع زيلي جلوساً متجاورين ،
 وكانت رائحة شواء الدجاج مع عطر اليوسف أفندي
 « المندالين » ورائحة شراب « بردو » تختلط في خياشيمنا ،
 وكان عطر « المندالين » في أثناء تقشيرنا له يفوح تاركاً وراءه
 في الأثير جواً ينقل الإنسان إلى مزارعه ويجعل خياله يتصور
 أشجاره لا تزال خضراء تحمل أثماره .

وكانت فورة المشاعر قد جعلتني أحس عبارات لطيفة
 وظريفة وتصورات جميلة تختلج في نفسي . وشعرت بالميل أن
 أقدم إلى رفيقتي في السفر زيلي باقة من الإحساسات والمشاعر
 التي تصطبغ في صدري ، والتي أثارها هي في أعماق
 القصية ، وفجأة تكلمت : ما هي الألوان والأطياف يا زيلي ؟
 أليست هي كل ما في عالمنا من زخرف ورونق وجمال ؟ ؟

إن الأطياف والألوان وجود انبثق بكل جلالته من أطواء العدم . . .
 ليسربل الموجودات بضياؤه ، وليبعث فيها الحياة والجمال
 والحلاوة والطلاوة ، إن الموسيقى نتيجة لما سربل الأصوات من
 أطياف وألوان ، والشعر نتيجة لما سربل الألفاظ من الألوان
 والظلال والأطياف . ولا يمكن للفكرة ولا للخطرة أن تدخل
 في نطاق الفن قبل أن تلبس لها لبوسها من الألوان والظلال
 والأطياف ، والمرأة لكونها طيفاً جميلاً برزت في عالم
 الموجودات ، لهذا نجد النساء يجعلن أنفسهن مشجياً للألوان
 والظلال .

فضحكت زيلي وقالت : أظن أنك لا ترى في الرجل
 ظلاً واحداً على الغالب .

فقلت : إنني أرى الأطياف والظلال في المرأة وحدها .
 إن المرأة غصن جميل ، لو شاءت لأزهرت في كل يوم
 عشر مرات . في كل مرة زهرة لها لونها الخاص وطيفها الخاص
 وظلالها الخاصة !

فقلت : وإذن فالرجال عندك كأشجار السرو والزيتون .
 فقلت : ينخيل إلى أن في روح الرجال شيئاً من القتام ،
 وينخيل إلى أنهم كالمشروبات الثقيلة ! . . . تأمل . . . إن كل
 الأشياء التي تبرد وتتألاً وتسع وتتألق من اللآلئ والأحجار

الكريمة وأنواع الفراء الفضي الفاخر ، كلها مخصصة بالنساء .
 ألسنا نحن الرجال نرى بدر السماء ونجومها والبروق التي
 تتألق في الليالي المظلمة ، والغروب والشروق ، والفجر ، وكل
 ألوان الطبيعة وظلالها وأطيافها في النساء ، في وجناتهن ، وفي
 ثغورهن وفي عيونهن وفي شعورهن وفي أجسادهن الناعمة !
 ثم عند المرأة كل ما يبعث النشوة في نفوسنا من مظاهر الطبيعة ،
 من ثورتها وسكونها ، من هياج البحر وهدوئه ، من تلاطم
 الأمواج وفيضان الأنهار ، من تألق النجوم واندفاع المياه .
 كل هذا نراه في المرأة ، في صدرها ، في الأعماق من نفسها ،
 في روحها ، في تلفتها وحركاتها ، في بسمتها وفي عبوسها .

وأظن أن زيلي كانت تلمس من إطنابي في مدح المرأة .
 مظهرأ من الحالة التي جرأتني ، فلاطفها وأمسكت يدها
 واحتويتها بين يدي . نعم ، لا شك أن زيلي كانت غارقة في
 أحلامها ، كانت قد انزوت في ركن السيارة التي تقلنا ،
 وقد التفت بردائها وأحكمتها على بدنها الغض . وكان إنصاتها لي
 يحمل إلى نفسى صورة منها . وكأنها تستمع إلى أحلام وتخيلات
 إنسان ذهبت برشده الخمر .

وفجأة حولت وجهي نحو الصحراء التي اكتست بلون الرماد
 وبدت مقبضة للنفس ، مورثة للملل ، حيث انتشر على

وجهها قليل من الضباب ، وقلت : الموت ! ما هو ؟ انحلال تام في الطيف وافتقاد نهائي للون . والواقع أن ضعف الظلال أو قتام الألوان مما يورث الملل في النفس والانتقباض في الروح . والوحدة والكدر ، ماهما ؟ ليسا إلا الروح الإنسانية وقد تجردت مما يتراقص عليها من ألوان الحياة وأطيافها . الطيف والظلال برغم أنهما في الحقيقة لا شيء ، هما في الواقع كل شيء . إن أبرز مثل لذلك العظم ، فإن اختلاط بعض الألوان على قطعة من القماش المطرز ، يجعل آمال أمة بأسرها تجرى وراءها . إنها رمز أمانيتها في الحياة . . . والمرأة ، ما هي ؟ رمز أمانى الرجل في الحياة . تتعقد عليها كل آماله ورجائه فتجرفه وراءها . أليس هذا هو الواقع ؟ أليست المرأة هي التي جرفتني وجرتني وراءها حتى سهول الجزيرة ، أليست أنت هي ؟ . . .

وكنت أنظر إلى زيلي وأنا أنطق بهذه العبارات أحاول أن أسبر أغوارها القصية من نوافذ نفسها ، من عينيها الصافيتين ، من تلك الحلقات الزمردية والياقوتية المتداخلة ، من ارتجافات شفيتها التي تحمل ما يختلج في أعماقها . كنت أحاول أن أشق الطريق من شفيتها القرمزيتين ، اللتين تحاكيان زهرة ثمر الرمان . وكنت أحاول أن تكون نظراتي هادئة حتى لا تؤذيها . ولهذا كنت أحياناً أصرف النظر عن وجهها إلى جيدها ، فبدنها ،

فشعرها المسترسل خصلات سوداء حالكة تحاكي الليل ،
ومن بينها كان وجهها يبدو لي في نضوعه كالصباح . والفجر
يبدو لي بشفقه من شطرى وجهها . ها هو ذا الليل وما هوذا
النهار قد اجتمعا فيها ، وهذا هو الفجر يفصل بينهما .
لقد كانت الدنيا كلها إزائى !

وكانت هي تنظر إلى الصحراء المبتلة بدموع السماء غير
أنه من المحقق أنها كانت تمنع في مدلول عباراتى ، كانت
تتلذذ بهذا الشراب اللذيذ الذى أسقيتها إياه قطرة قطرة . ولم
يكن إظهار هذه اللذة ليتفق مع ما تأخذه من الوقار الذى
تتظاهر به معى .

ومهارة المرأة فى مقدرتها على حفظ حقيقة ما تنطوى نفسها
عليه . فهى لا تظهر رفضاً ولا قبولاً ، لا صدأً ولا ليناً ، إنما
تبدو فى مظهر كله براعة . تعلقك بالأمل ، وإن كانت
تجعلك تخاف انقطاعه . كانت تترك الإنسان فى حالة
تخالجه فيها الشبهات . وفى هذه الحالة المترددة التى تترك عليها
الإنسان كل أملها فى بلوغ أغراضها .

والرجل فى الواقع بجانب المرأة التى تظهر مثل هذا الاقتدار ،
أشبه بأرجوحة يعلو به خيال وينزل به واقع ، تحمله نشوة
ويسقط به كدر . وهو فى هذا موضع النقائص من حيث تتعاقب

عليه . وهو يجد في كل هذا ما يبعث في نفسه اللذة ، اللذة التي لا تدانيها لذة أخرى في الوجود .

إن الفردوس دار النعيم ، والجحيم دار العذاب ، وتصور هذا ممكن ، ولكن ألد الساعات التي ستمر بالإنسان لا شك أنها ليست في الفردوس ولا في الجحيم ، وإنما في وادي الأعراف حيث يختلط الأمل مع اليأس ! !
وأنا كنت في الواقع في وادي الأعراف !

٩

وتراءى لأبصارنا جبل كوكب ؛ وكان جبل « الحصن » الذي يقع على مبعده منه يبدو لنا كأنه رابض في أعتاب كوكب !

بدا لي هذا الجبل الأسود ، الخالك في سواده ، كإشارة تعلن لي انتهاء الرحلة ، أو وشك الانتهاء منها . وقد أحسست بحسرة أليمة في أعماق نفسي . وكنت أتمنى أن تتحول بنا هذه الصحراء ساحة تمتد كسهوب سيبريا ، نجتازها فلا تنهى بنا الطريق ولا نصل منها إلى غايتنا ! . . . كنت أنظر جبل

كوكب وكلى ألم وحزن ، وفي نظراتي إليه معنى من معاني
الغضب والثورة .

وفجأة أحسست بيد السرور الناعمة تربت على قلبي
الحزين . ذلك أن الشيخ شمعون التفت إلينا وأسرّ لنا بالكردية :
أظن أننا سنضطر أن نبقى وسط الطريق !

لقد كانت السيارة تدور يمناً ثم يسرة على الأرض الممدودة ،
وكان الطريق الممتد أمامنا يعلو ، ولهذا لم يكن في إمكان
السيارة أن تعلوها والأرض في بلل !

والتفت إلى زيلي ونظرت إلى وجهها ، ولكنها كانت
لا تحمل إحساساً معيناً .

وأسكت السائق « موتور » السيارة الذي كان يرغب ، ونزلت
أنا وشمعون ، نحاول أن ندفع السيارة في الطريق ، ولكن
محاولتنا ذهبت عبثاً .

وألقيت نظرة على ساعتى فإذا بالوقت الرابعة . لم يبق كثير
على غروب الشمس فتوجهت لرفاقى قائلاً : عبثاً نحاول ،
لنحتفظ بجهودنا . ولنبحث عن مأوى نقضى فيه ليلتنا حتى
يطلع النهار فنستعين بمن يخرجنا من هذا المأزق !

وكان الخابور ذلك النهر الذي يشق الجزيرة ، على يميننا .
ولا شك أن على مقربة منا بعض القرى والديساكر وكان

الشيخ شمعون مرتبكاً يرسل نظرات ساهمة نحو الأفق ويلتفت
 يمناً ويسرة . . . وأنا بدورى أنظر إلى ما حولي وأتملاه جيداً .
 لقد كنا وسط ضباب قاتم ، وكانت السماء ترسل المطر رذاذاً .
 واجتمعت قطرات الماء فوق معطفى كنقط من الزئبق . . .
 وكنت أحس برطوبة الجو ، وهو يترك قطرات ماء تتجمع
 على حفاقي شواربي .

وبدت زيلي واقفة بيننا منتصبة !

ووقفت أتملاها ، وأأمل محاسنها التي سطعت في البرية
 المكفهرة القائمة في أضوائها . ونسيت وأنا أتملى محاسنها أن أفكر
 في مكان ناوى إليه هذا المساء ، ونأمن فيه عليها . لقد كانت
 في ظرفها وفي رقتها وفي طراوتها وفي سكونها وتمالك جاشها
 تجعلنا نحس كأننا جماعة نزلنا معها نتملى من رؤية مشهد
 من مشاهد الطبيعة الساحرة . وبينما أنا سابح في تخيلاتي إذ
 تحرك الشيخ شمعون وانطلق في جوف البرية متجهاً يمناً
 قائلاً لنا : لا شك أن خيام البدو ليست على مبعده منا .
 أنا ذاهب أبحث عن نفر يساعدوننا في ورطتنا هذه .

وهتفت أنا بدورى : وأنا معك !

ولكن زيلي اعترضت سبيلي قائلة : ابق ! ليس في ذهابك
 فائدة ، أظن في ذلك فائدة لنا ؟ إن الشيخ شمعون كاف

لتحقيق هذا الغرض . هو يجيد لغة هؤلاء البدو .

وبدت هذه الحسنة التي كانت من قبل متحفظة معي في صورة من افتقدت بعض جوانب هذا التحفظ . ولمست في وجهها نشوة وفي صدرها أملاً أن أبقى بجوارها . ولست أدري ما كانت غايتها من ذلك ؟ لقد كنت حيران ! وكان شبح الشيخ شمعون يغيب في طي الضباب . وكان جرمه الممتليء يأخذ في التضاؤل كلما ابتعد عنا ، حتى غاب في الأفق . وطالعنا السائق بفكرة أنه يظن أن وراءنا قرية صغيرة ، ملح منها قبل لحظات النار التي أشعلها أهلها من البدو . فأشرت عليه أن يتجه نحوهم ، وليلق هو بدلوه ، قائلاً : وإياك أن تغيب أو تغيبنا عن أنظارك ! . . .

وأخذت أشاهد مشهد غياب السائق أيضاً وكان كصاحبه يذوب رويداً رويداً في ضباب البرية حتى تلاشى في أطوائها كما تلاشى من قبل زميله الشيخ شمعون .

لقد كان الموقف الذي أنا عليه عجبياً ، فما كان يخطر ببالي أن زبلي الحسنة الأرجنتينية تجمعني إليها الظروف وتمهد لنا السبل حتى نكون جنباً إلى جنب منفردين في جوف البرية وراء الفرات ، من أرض الجزيرة ! لقد كنت أشعر بأنها نعمة من القدر أن يجازيني بهذا النعيم ، وكنت في حيرة من سعادتي

التي أنا فيها كالحالم الذي يحلم في نومه بأطيب الأحلام . ولم يكن في مقدرتي أن ألج السيارة التي دخلتها زيلي متهاككة فيها ولكن زيلي تحركت وقالت : أخشى عليك من البرد ، ألا تدخل ؟ !

فأجبت : إنني أفكر في أمرى ، وكيف أنني لم أقم بأى فائدة للرهط ، وفي نفسي أن أنثني ميسرة أجرب حظى أنا أيضاً . . .

فضحكت وقاطعتني قائلة : دعك من كل هذا !
ادخل . . . ادخل السيارة . . .

ونزلت عند رغبتها ودخلت السيارة وانزويت في ركن منها على قدر ما يسعني الانزواء . ولكن زيلي لم تتركني لأمرى إذ قالت : ألا تأخذ راحتك . . . إن جلستك في السيارة غير طبيعية وليست مريحة لك .

فأجبتها : إنني أشاهد البرية لعلى أظفر بما يرد على أنفسنا طمأنينتها .

فقالت : إن كنت ترى لعينيك قدرة على جلب المعونة إلينا ، وترى لهما قوة مغناطيسية تجذب إلينا من ذهبوا يبحثون عن المدن فداوم في إلقاء نظراتك نحو البرية !
وشعرت أن استهزائها بي يحمل إلى معنى عدم ارتياحها .

للتحفظ الذى أخذت نفسى به . وقطعت على تفكيرى
قائلة : مالك صامت لا تتحدث ، لقد كنت من قبل تتحدث
بطلاقة عجيبة وبنشوة !

فقلت : إن نفسى لى ضيق شديد !

فقلت : لم ؟

فقلت : لأنك ستقضى هذه الليلة غير مرتاحة . . .

فقلت : وماذا يكون لو قضينا الليلة هكذا ؟

وشعرت بشيء من الجراءة ، فقلت : لكم أنا سعيد أن
تجمعنى الظروف إليك . لقد كانت الساعة الأولى التى
رأيتك فيها بالباخرة مارييت باشا وأنت تتحدثين بالكرديّة ذات
أثر فعال فى نفسى ، وجعلتنى نهياً للشكوك التى كانت تتناوب
ذهنى . والآن هأنذا فى جوف البرية وجهاً لوجه معك ، مرتبطين
برباط الصداقة ، إن هذا التبدل نفسه يجعلنى أغتبط . وكلما
فكرت أن هذه السعادة ليست بالميسرة لكل إنسان شعرت بما
يزيد على نشوتى . . .

فقلت : ولكنك لا تبدو سعيداً لكونك معى . . .

فأجبت : هذا لما أنا عليه من ثورة المشاعر وهيجان الوجدان .
لقد كنت أظنك واحدة من الإنسيات يوم رأيتك بين الناس ،
ولكن الآن ، فى هذه البرية الممتدة أحسست بالهوة السحيقة

التي تفصلني عنك . إنني أشعر بالهوة التي يشعرها الغاني مثل
 أمام الذي لا يموت !

ومدت زيلي يدها ، ضغطت على الزر المعدني فإذا بالضوء
 يغمر المكان وقالت : لقد أشعلت المصباح الكهربي حتى
 نستطيع أن نرى من بعيد اللذين ذهبا يطلبان لنا المدد ،
 فلا يضلان الطريق في العودة .

وكان هذا الكلام يحمل في أطوائه لى معنى آخر .
 ولهذا قلت لها : حسناً فعلت !

وكنا نحن ومضة من النور تتألق في حالك الظلام الذي
 ينوخ على البادية بقتامه . وكنت بين الفنية والأخرى أطل
 من النافذة . لأرى وأتفقد الداهيين ، عسى أن يكونوا قد
 أتونا بالمدد . وكان القتام الذي يحاول أن يتداخل ، والنور
 الذي يشع من السيارة من مصباحها الكشاف المنير في جوف
 البادية ، يبدو لى أشبه بشيء كثيف ، حتى لقد كان الخيال
 يغرينى أن أمدّ يدي فألمسها وأرى ما هى . غير أنه يظهر
 أنها وطنت النفس ألا تسكت وألا ترضى بسكوتنا فقالت لى :
 لا شك أنك في هذه الساعة تفكر في أصحابك الذين بين
 الآستانة وأنقرة ، وتشعر بالمدى الذى لا يتصل طرفاه ، بينك
 وبينهم ، وبالفوارق بين أمرك وأمرهم . . . لا شك أنك غارق

في تلك التصورات ، تراودك أحلام الشباب وذكريات الماضي معهم . . .

فقلت : إنني لا أشعر بهذا المدى والفرق إلا بيني وبينك .
فرق عمر وفرق تعلق بالمثل . . .

وأكملت حديثي إليها بنبرة كسيرة حزينة ، وقلت : إن الرجال الذين جاوزوا سنى الشباب مثلى يشعرون دائماً بالفارق بينهم وبين الفتيات ، وإذا هم تزوجوا بمن هن أقل منهم سناً ، يشعرون بالفارق الروحي والزمنى ، وهذا يجعلهم يهربون من الحياة الزوجية . وأنا في الواقع من هؤلاء وإذا كان لهم من عيب فذلك مصدره حساسيتهم الزائدة . يمكن أن يقول الإنسان إنهم أنانيون ، غير أن هذا لا يعنى في الواقع أكثر من أن أنانيتهم هى في تهربهم من الآلام المتصلة إلى ألم بسيط ، هو الابتعاد عن الحياة الزوجية ، ومثل هذا الترجيح لحياة العزوبة في الواقع - وإن كان يعطى الإنسان قسطاً من اللذة قليلاً - إلا أنه ينقذه من آلام كثيرة لا يحتملها الحساسون !

كانت هذه الكلمات تنهى إلى أذن زبلى وتطرقها وكأنها تعطىها صورة من حقيقة التحفظ الذى أخذت نفسى به .
ولهذا أجابتنى زبلى قائلة : أنت على حق فيما تقول !
ثم مدت يدها بمبدالها تسمح ما تجمع على النافذة من

قطرات الماء حتى تكشف الخارج . وحمل النسيم الذي هب علينا من الخارج جواً رطباً يحمل رائحة عطرها . وشعرت في هذه اللحظة بالآلام التي سوف أعانيها حين لن أجد لها إلى جوارى ، إنها آلام مريض تراوده فكرة عدم امتداد العمر به حتى الربيع الجديد .

• • •

لقد كانت عملية إنقاذ السيارة صعبة ، واستغرقت ردهاً طويلاً من الزمن .

وكان الشيخ شمعون قد جاءنا بنحو عشرة فرسان من قبيلة شمر ليساعدونا في التخلص من الورطة التي انتهينا إليها . وبواسطة الجهد المبذول تحركت العجلات على الأرض وتحركت السيارة . على أننا اضطررنا أن نقضى بعض الوقت مع المساعدين الذين لحق بهم شيخ قبيلتهم مع كبير أبنائه . وعلى ضوء مصباح السيارة تجمعوا حولنا ، وكان شيخ القبيلة يتحدث إلينا بالفرنسية ، كان على جانب كبير من اللطف ، وكان يصر هو وجماعته أن نقضى ليلتنا في خيام القبيلة . وكنت أعرف أنه أكثر المصريين في هذا الطلب ، وأن سبب إصراره هو وجود زيلي . . .

كان ابن شيخ العشيرة يطمع في أن يقدر على أن يجعل

هذه الحورية الإفريقية ترضى بقبول ضيافة عشيرته . وكان يأمل ألا يضيع فرصة سنحت له . لقد كانت المشاعر تصطبغ في نفسه وكنت أنا أحسها ، ولكي أضع حداً لإلحاحه توجهت لزبلي قائلاً : ماذا ترين ؟ هل نداوم السفر أم نقضى ليلتنا في مضارب القبيلة !

فأجابت : لنستمع رأى الشيخ شمعون ؟
والواقع أنها تؤمن إيماناً تاماً وتثق كل الوثوق بهذا الرجل .
وقال شمعون : أرى الطريق بعد هذا مأموناً ، فلنسر على البركة .

وأسرعت أنا وأؤمن على حديثه قائلاً :

— نعم ، من يدري فربما لا نشعر بالراحة في المضارب .
ومن المؤكد أننا لن نرتاح لطعامهم ، ولن نجد الراحة في نومنا في خيامهم . لهم عاداتهم وتقاليدهم الخاصة التي تضطرونا للنزول عندها . وعلى فرض أن السيارة تعطلت بنا في الطريق ، ففي الإمكان أن نقضى الليل فيها حتى يطلع علينا النهار .

وكان الشيخ شمعون ساكناً . . . وكنت في عجب من جموده ، ألا يتحرك هذا الرجل مرة ويخرج عن جموده المشهود .
وتوجهت بنظري للبرية ، وكانت النجوم أخذت تتألق في السماء ، في القبة الزرقاء ، كانت تبعث النور في البرية

والهداية معها . . . وأخذنا نستعد للتحرك .

وقدمت « المشعل » الحميل الذي كان معي لشيخ العشيرة .
أما زيلي فدت يدها بوردة من ورد لبنان بعد أن تناولتها من
صدرها وقدمتها لابن شيخ العشيرة ، وفي لهجة رقيقة قال لها
بالفرنسية : أشكرك يا سيدتى . إن هذه الوردة سوف تدبل ،
ولكن ذكرك العطر سوف يظل دائماً في خاطرى !

وهذه ذكريات لن أنساها أنا بدورى من رحلتى التى
قمت بها مع زيلي فى الصحراء ، وكان ابن الصحراء سبب
مبعثها فى نفسى . وأخذنا نشق الطريق فى البادية على رمالها
الناعمة نحو الهدف الأخير . وبدت أضواء « حسجة »
لناظرنا ، وقالت لى زيلي :

— ما رأيك ؟ أتمر على صاحبنا ضابط الاستخبارات

الذى قابلناه بالباخرة ، إن مقره هنا . فربما نجده ! . . .

فأجبت : ليس من رأي أن نمر عليه إذا كنا لن نقضى
ليلتنا فى البندر ، إن صداقة من هم فى وظيفة الاستخبارات
لا تجيء للمرء بالخير . ومن الممكن أن يكتب إلى المركز
بمرونا وليس ببعيد أن يتصل المركز بحكومة العراق فتشير
على أنفسنا بعض الصعاب . . .

وكان الشيخ شمعون جامداً . وقد مضى بنا من أطراف

القرية وكأنه واثق من أننا لن نطلب منه أبداً الوقوف عندها ولو قليلاً . ومررنا في يسر وسهولة من على الجسر القائم على نهر « الخابور » ثم عبرنا الجسر المقام على نهر « ساقاك » ودلفنا للبرية من جديد ، ولم تنتبه قرية « الحسجة » للسيارة التي أقلتنا والتي مرت من أطرافها .

كان الطريق الحديد الذي نقطعه صخرياً . لا شك أنه من بقايا اللحم التي كانت ترسله براكين الجزيرة في العصور الجيولوجية السحيقة . . . وكنت قد ملت من نافذة السيارة أتأمل الطريق الذي نقطعه ، وقالت لي زيلي : إننا الآن أمام جبل « كوكب » وإذا تمعنت ودققت النظر بدت لك فوهة البركان من الجبل .

ومالت على محدثي ، وأطلت من النافذة التي فتحتها . كنا جنباً إلى جنب نطل منها ، وهي بجسمها متكئة على ، وكنت أحس بأنفاسها الحارة في وجهي ، وبالحياء تضطرب في أعماقها ، واضطرت أن أعتدل في جلستي كمن رأى الجبل وانتهى من رؤيته مع أنني كنت في شغل عنه بها . وكان الوقت الحادية عشرة ، وكنا لا نزال نطوى البادية .

وفجأة أرسلت السيارة أضواءها من مصباحيها الكشافين ، وأخذنا نتخطى بعض الخنادق ثم دلفنا إلى طريق مستوية ، ثم

سارت السيارة في انشاءات متعددة في هذا الطريق . ولأول مرة انتهى إلى أذنى منذ بدأنا الرحلة صوت الكلاكسون من السيارة ، وقربت زيلي وجهها من النافذة ونظرت للخارج ، وجاريتها أنا بدورى ، كان يحيط بنا أربعة أو خمسة فرسان ، وسألت زيلي بلهفة : من يكون هؤلاء ؟

كنت أظن أنهم من رجال الحدود أو من مفتشى الجمارك غير أن زليخا قالت : إنهم رجالنا .

وأدركت أنني بت الآن في أرض سنجار بين عشائر اليزيديين في موطنهم الأصلي ، وفي ضيافتهم .

١٠

في صبيحة اليوم التالي ، عندما استيقظت بعد تلك
السياحات الليلية الطويلة المملوءة بالطرائف والخيالات اللذيذة ،
كنت أشعر بدهشة عظيمة وكان يخيل لي أنني داخل ستوديو
سينمائي : فالسرير الذي رقدت فيه كان يشبه السرر الأوربية
وكان في وسط الغرفة منضدة ذات رجل واحدة صنعت داخلها
رفوف لوضع الكتب ، وفوقها وضع تمثال للملك غازي الأول
مصنوع من الفخار ، وفي طرف الغرفة كانت تقوم خزانة
عظيمة متحركة إذا فتحت أبوابها ظهرت وراء كل
باب مرآة مزخرفة أطرافها بالماس ، وبانت داخلها ملابس
المعلقة بانتظام . وكان هناك ثلاث أرائك لا تشابه إحداها
الأخرى . . . ذلك ما كان في البيت .

ولكن هذه الأشياء كانت تعطي الغرفة المزخرفة الجدران
العالية ، شكلاً رائعاً عجبياً ، أما من حيث المجموع فلم تك
تشبه الغرف التي نعرفها نحن ، فكنت إخالني داخل برج
قلعة أو صومعة دير .

كان أول ما قمت به بعيد استيقاظي من النوم أن ركضت إلى النافذة ، غير أن ارتفاعها عن مستوى قامتي اضطررتني إلى سحب إحدى الأرائك والصعود عليها لفتحها . عندئذ أطلعت على ذلك الحصن الساكن ، وكان الهواء لا يزال على رطوبته ، ولم يكن أمامي في تلك الربوع الخالية قرية ولا بيت ولا قادم ولا غاد .

جلست أستجمع في مخيلتي حوادث الليلة الماضية : إننا بعد أن اجتزنا طرقاتاً محجرة محاطين بكوكبة من الفرسان ، وقفنا أمام عمارة مهيبة منورة باحثها بقناديل « اللوكس » . ومدخلها عبارة عن درج مكشوف ، بعده باب منخفض ، ثم درج آخر ضيق مغلق . . . وفي النهاية « صالون » واسع ساطع الأنوار .

استقبلت زليخا خادمة مصقولة الشعر مقصوصته على الطراز الأوربي ترتدي أردية سوداء ، أما أنا فكان غلام يحمل لي حقيبة ملابس .

وبعد بهو وأربع أو خمس درجات كنت داخل الغرفة التي سبق وصفها ، ثم فتح لي الغلام باباً مجاوراً لغرفتي رأيت داخله حماماً صغيراً ومغسلة حديثة تتقد تحتها النار . وبعد برهة جاءني الغلام يخاطبني بالفرنسية قائلاً : إن الأميرة تعتذر لشدة تعبها .

ولذا فسأحضر طعام السيد إلى غرفته .

تناولت طعامي بعد الاستحمام على مائدة خيزران مغطاة بالبللور ، وكانت تضم المائدة أنواع الأطعمة الغربية والشرقية والمشروبات الروحية المختلفة. فكانت تعتريني الدهشة كلما نظرت إلى هذا الرقة وسط ذلك القفر المنقطع البعيد الأثر القائم على سفح جبل قاحل ، فكنت أقول في نفسي : إن ملايين زليخا وعبدتها الذين يعدون بالألوف من سكان تلك الأصقاع هم الذين أوجدوا هذا الرفاه في ذلك الحصن النائي ، بل ربما كان اليزيديون يرون في نقل هذه الأشياء إلى الحصن على ظهورهم نوعاً من العبادة ! . . . وبمثل هذه الأفكار والتصورات وتحت تأثير المشروبات والأطعمة اللذيذة التي تناولتها استسلمت إلى إغفاءة عميقة .

وفي الصباح أتاني الخادم المخصص بالاعتناء بي يحمل طبقاً من الفضة عليه بطاقة صغيرة عامت حالاً أنها من زليخا . فأخذتها وتلوّتها فإذا فيها : « إذا كنتم تودون القيام بجولة على ظهر الخيل فكونوا على استعداد عند الساعة التاسعة » .

أخذت تلك الورقة بيدي عدة مرات في أثناء ارتدائي

الثياب . وبالرغم من أنها لم تك تحوى كلمة أو عبارة يصعب فهمها فقد تلوتها تسع مرات أو عشرًا !
 واجترت في أثناء محاولتى الوصول إلى الصالون المعد للاستقبال ممرات ضيقة ودهاليز معتمة ، ولما صرت في منتصف الصالون أدخلت إلى غرفة مكتب ، وهناك رأيت كاتباً مسناً ينحنى بمبالغة لا تخفى على عين المشاهد ، أمام سيدة مقدماً إليها رزمة من الأوراق للتوقيع عليها . تقدمت فجرى التعارف بيننا .

وأخذت زبلى تم حديثها قائلة : إن لدى أناساً يساعدونى فى تسهيل مهمتى ، وإذا لم أقنعكم بصحة مشروعى واستقامته فيجب عندئذ أن أراجع الدول المجاورة ، ثم وقعت ورقة وكلفت الشيخ شمعون أن يحملها مع بقية الرسائل إلى الموصل . وبعد برهة كانت السيارة التى تقل الشيخ شمعون تقطع الفيافي والقفار المحيطة ، فى الوقت الذى كنت فيه أنا وزليخا نمتطى صهوة الجياد . شعرت لأول مرة بعد وصولى إلى الحصن بالراحة والطمأنينة لأن شبح الشيخ قد ابتعد ، ذلك الشيخ الذى — بالرغم من أنه كان لا ينفك يطرق برأسه إلى الأرض ولا يرفع نظره إلى — كنت إخاله يرمقنى دائماً بدقة وانتباه لدرجة أننى صنعت له فى مخيلتى عينين صناعيتين يرى بهما بدون أن

يحول نظره عن الأرض . وكان يشع من تينك العينين بريق
مدهش عجيب ينم عن أسرار خفية كامنة في نفس ذلك
الشيخ .

إن ركوب الخيل ولباس الركوب كانا يليقان جداً بجسم
زليخا ذات الحصر النحيف والقد الأهيف ، وكنت أسير
وراءها لضيق الطريق التي كنا نمر بها ، ولا شغل لي إلا أن
أنظر إلى عقصات شعرها الطويل المسترسل تحت القبعة
الرجالية السوداء ، فكأنني لم أكن أقصد قط التزهة في الجبل ،
بل جل ما أبغى هو أن أصعد شيئاً فشيئاً بمتابعتي الإحداق
بذلك الشعر الجميل إلى طور الإجابة لدعوة سماوية .

وفعلاً كانت هضاب سنجار مغطاة بسحب كثيفة
وقد اعتقدت أنني سأرى بين تلك السحب مخلوقاً فوق البشر
أو رباً يزيدياً . . .

وبدا لي البناء الذي حللت به ضيفاً أكثر وضوحاً وبهاء
عندما أصبحت في أعلى الهضبة المجاورة للحصن . وقد جال
في خاطري أن هذه القلعة ربما كان الصليبيون الحمر
هم الذين أسسوها ، وأضيفت إليها على توالي العصور
جدران جديدة فبدت على شكلها الحاضر ، ولكن موقعها
العجيب قرب الجبل كان يظهرها بمظهر الصخرة الناتئة من

بطن هضبة .

لحظت زليخا إحدائق الطويل بالقلعة وإعجابي بينائها
 الشاهق فبادرتني قائلة : كان للأمرء اليزيديين في سالف
 الزمان قصور فخمة على مقربة من قسبة داهوق التي تبعد
 مسافة عشر ساعات عن الموصل ، ولا تزال آثارها باقية
 تقارع الزمان . لقد اخترت هذا الحصن لإقامتي في جبل
 سنجار لماله من علاقة مباشرة بتاريخ عائلتي ، فقد حضر
 والدي مواقع دامية تحت هذا الجدار ، وكانت هجرته من
 هنا وأقام عمر باشا شهوراً عديدة في الحصن جمعت خلالها
 في باحته الألوف من الرؤوس والجماجم البشرية ، ودخل في
 حوزة هذا القائد أربعة أعلام يزيديّة من ستة كانت ترفعها
 فرقهم ، وقد استطاعوا أن ينجوا بعلمين أخفى أحدهما في
 مخزن هذا البناء سأريكم إياه في العودة .

بدأنا نسير في ممرات الجبل الضيقة يجرسنا فارسان مسلحان
 يسيران بعيداً عنا ، وفجأة قطع طريقنا جدول ماء فوقتنا ،
 وكانت هي البادئة بالكلام . فقالت : دخنوا هنا لفاقة . . .
 وبإمكانكم أن تعطوني أخرى .

ترجلنا فاقرب منا الحارسان واستاقا أمامهما الخيل ثم
 اختفيا بعيداً وراء أكمة . نحن الآن في أعلى بقعة من الهضبة وقد

أخذت شمس الصباح تبدو وترسل أشعتها الذهبية على ربوع
تلك القلعة . وقالت زيلي : هل استطعتم أن تمضوا ليلة البارحة
براحة وهدوء ؟

فأجبتها : أما من ناحية الجسم فقد مرت الليلة براحة
وهدوء تامين . وأنت ؟

فسكتت قليلا ثم قالت : وسط . . . وقذفت بعصبية
ظاهرة في الماء بلفافيتها التي لم يشتعل منها غير جزء يسير .
فكرت أنها قد اهتمت بحادثة البارحة بقدر ما اهتمت
بها أنا الآخر . فالنساء اللواتي لم يدركن بعد معنى الحب كما
يجب ، يمضين بعد أول مناسبة غرامية ليالي طويلة للتغلب على
رغباتهن ، وغالباً ما يكون صباح هذه الليالي مصحوباً بنوبة
عصبية .

شعرت أنها ترمقني بنظرة فاحصة فهي تود أن ترى ذلك
الرجل الذي تصورته في مخيلتها على غير شكله وصورته ، تريد
أن تتبينه وتعرف نفسيته وداخله وخارجه . غير أن شعر فودي
كان يبدو ناصع البياض تحت أشعة الشمس المتوهجة . كما
أن تجاعيد وجهي وخطوطه كانت تظهر أكثر عمقاً وأكثر
ظلاً . وبالرغم من جسمي القوي وصدري المتين كنت أعتقد
أن بلوغى سن الخامسة والأربعين يبدو بصورة واضحة على

سنياء وجهي .

نحن نمر بين الراحة والرفاه إلى التعب والبؤس ومن حياة الأجير إلى حياة المعلم . . . ثم تكتمل حواسنا بعد أن تأخذ نصيبها من فهم الحياة ومسرّاتها ، فنستطيع حينئذ بسهولة أن نضرب على الوتر الحساس الذي نتمكن به أن نزيح عن أنفسنا همّاً أو نلقى عن كاهلنا نصيباً ، كذلك يزداد موقفنا من الجمال وضوحاً . فنلاحظ عندما ننظر إلى جسم امرأة التناسب الموجود بين أعضائها وربما يبدو حيناً - في هذه السن - أقل اضطراباً وتهاقماً ، ولكنه مع ذلك حب مملوء بالمهارة والاثمّان والرزاقية ، فالمرأة تتذوق هذا الحب الواعي الراكز شيئاً فشيئاً أكثر مما تتذوق الحب الكائن المتهافت . وحب الرجل الذي بلغ سن الكمال لا يؤدي بالمرأة إلى الذوق فحسب ، بل يزيد في شعورها به وحسها بالمعنويات . ولم يكن بإمكاننا أن أقول ذلك لزيحنا أو أحاول إفهامها إياه ، فإن الرجل ، قبل هذه السن ، شبيه بآلة فرغ محركها أو بميزان حرارة تمدد زئبقه بدون حرارة .

أما غرام الفتى فليس أكثر من رحلة سكير . وبما أننا نعرف ما نريد فقد سلكننا أقصر الطرق وهذا الذي جعلنا نعتقد أن حبنا سيدوم .

مرت هذه الخواطر بنفسى فى الوقت الذى كانت فيه
 الرغبة تؤثر فى جسمى تأثيراً فيزيولوجياً ، وقلت من الممكن أن
 تستولى غداً على روحى وتمتص كل أنانيتى . . . ولكن ماذا
 بعد ذلك إذا ما فشلت فى الحب ؟ لا شك أن الصدمة ستكون
 جد أليمة . وفجأة بدأت أفكر من جديد بهذه الهواجس
 المضنية . . . وما تفكيرى إلا بدء الشعور بالكبر ودخولى
 مرحلة الكهولة — غرام رجل فى الخامسة والأربعين من عمره . . .
 لقد بدأت الآن أنظر إلى مزايا التقدم فى السن — هذه المزايا
 التى كنت أفكر فيها قبل قليل — بشىء من الحقد والتأفف
 والغضب . إن العناية بتجنب الهيجانات والاضطرابات النفسية
 هى أول علامات الشيخوخة .

يقولون إن القلب لا يشيخ أبداً . . . إلا أن خمود حرارته
 يجعله فى سمط الداخلين فى الشيخوخة .

— أراك مطرقاً كثيراً . . .

— أفكر فىك ، وأفكر قليلاً فى نفسى ، وكنت أود
 لو أنك غير شابة ، وغير رائعة الجمال بهذا المقدار . إن
 شبابك وجمالك قد سلبانى لى . إننى أصارحك بكل ما تنطوى
 عليه جوارحى . . . وأحب أن أسألك سؤالاً أرجو أن تجيبينى
 عليه بصراحة .

— قل . . . إنني مصغية إليك . . .

— هل أحببت أحداً قبل اليوم ؟

تبسمت ، وعلمتُ من وراء هذا الابتسام أنها لم تغامر
قبل اليوم بصورة جدية .

قالت : إذا كنت تعدّ الاقتراب من المرء ومعاشرته
والاثناس به حباً ، فقد أحببت حتى الآن مرتين . . . يترأى
لي أن حب الفتاة يكون هكذا . . . ترى شخصاً فتنجذب
إليه ، وتتمنى لو يحتضنها ويضمها بين ذراعيه ، تضغط
بيدها على يده وتتلاقى نظراتهما وتود أن يقرب منها وأن تلتصق
به . . . وهذا كل ما في الأمر . . . فأنا شعرت بذلك لأول
مرة مع أحد وكلاء مزارعنا . كان جميلاً كأدونيس ، متناسق
الجسم ، منسجم الهيئة ، فارساً لا يدانيه في القروسية أحد ،
يمسك بقبضة يديه قرون الثيران ويمتطي ظهورها ، ويخضع
لأمره مئات الفلاحين ، وبدلاً من أن ينظر إلى جمالي وجاذيبي
وأنا في السابعة عشرة من عمري ، كان يداعب المهرات
ويخمشها ويقبل أفواه العجول ، ويمر من أمامي بخفة ورشاقة
مرور الكرام . كنت أود لو بدت هذه العاطفة نحوي ، كنت
أشعر برغبة ملحة لأن يحتضنني ويصهرني بين ذراعيه وأن
أنام على صدره القوي كلما حمل بين صدره حملاً صغيراً . . .

ولكن هذه الأمنيات تبددت فكنت أفام كل ليلة وملاء

عيني الدموع !

— ومن ثم ؟

— لا شيء إذ علمتُ يوماً أنه غادر القرية إلى ما وراء

الجلبل إثر شجار تافه .

— والثاني ؟

— أستاذي في علم النفس ، فقد شعرت نحوه بنفس

الحب ، كان قد تجاوز الأربعين من عمره ، أبيض شعره

قبل الأوان ، كان يرتدى دائماً سترة سوداء وصدريّة ملونة ،

وكان أنيقاً بلباسه ، وكان في صوته هذه النبرات التي تضفي

على عذوبة حديثه هذه الموسيقى الجميلة . . . وعيناه المحمورتان

تجعله دائماً كسابع في الخيال ، وعندما كان يقرأ الدرس

كنت أشعر أنني في عالم آخر . . . كنت أظن نفسي وكأني

أسير في ليلة قمراء على ضفاف نهر الفانج في الهند أستمع

إلى صوت قيثارة ، وكنت أغيب في لانهايات بعيدة بين

الفينة والفينة . . . لقد رأى هذا الرجل عيني الناظرتين إليه

تدمعان فسكت ، ثم حدّق مليّاً بتلميذته الباكية ، وكنت

أنتظر حكمه ، وكان درسنا يومذاك في «قابلية الهيجان

والتهيج» ثم قال فوراً . أنتم تعلمون بأن دموعنا هي التي تحرس

أعيننا ، فهي ملح مركب بمقدار أربع عشرة درجة في الألف من « كلور الصوديوم » العادى . . . فإذا دخل جسم أجنبي في العين عمل إفرازات من طرف واحد في حين إذا انتابنا حزن أو فرح أو أى عامل نفسانى يثيرنا فعندئذ تفرزان من الجهتين ، فلو تجردت العيون من الدموع لفقدت بريقها وصفاءها . فالرجل الذى أحببته كان يفكر بأن يجعل من عيني اللتين ذرفتا الدموع من أجله موضوعاً لدرس نفسانى .

هذان هما الحبان اللذان شعرت بهما .



كانت زليخا تروى لى قصة حبها بطور نصف حزين تخالجه السخرية ، وحين سمعت قصتها أصبحت لا أدرى أضحك أم أتأم . . . وفجأة أرادت تغيير مجرى الحديث فقالت : أريد أن أقف على آرائك بحق المرأة ؟

— إن رأيى فى المرأة متناقض ، يتبدل بسرعة بين فترة وأخرى . . . فطوراً أميل إليها وطوراً أنفر منها ، أبها إعجابى تارة ، وأنقلب عليها تارة أخرى ، تظهر لى فى يوم ما غريبة كأن الحب لم يلامس قلبها وكأنى لم أركع يوماً أمامها . وأتساءل : الأجلها تثور هذه الحلائق ، يَتَقْتَلُونَ وَيُقْتَلُونَ . . . كانت تعتربنى هذه الحالات ، وقد تراءى لى فى يوم آخر فى صورة

مزرية تبعث الألم في النفس ، أنظر إلى وجهها بروح من
 الخيرة والرأفة ، ثم أعود فأتساءل ما هي العوامل التي تجعل
 النساء مداورات ومخادعات ؟ لماذا ينشأن هذه التنشئة ولا يرغمن
 على طراز من الحياة لا وهن فيه . . . لماذا يعرفهن الضنى
 والهموم وقد تجملن بهذه الابتسامات السعيدة واللون الزهري
 الرائع ؟ كيف تكون الحياة جميلة بدونهن لو لم يخصصهن الله
 بالسحر والفتنة ؟

في بعض الحالات كانت المرأة تخيفني خوفاً مريعاً
 فأحاول الابتعاد عنها . . . إن الناس ترمز إلى الموت بجمجمة
 وعظمتين متعاقبتين ، وهذا قبيح . . . أفليس من المستحسن
 أن يرمز إلى الموت بصورة امرأة جميلة ! !

تظاهرت زليخا بعدم الإصغاء إلىّ وكان بيدها سوط
 تخط به فوق الماء دائرة إثر دائرة . . . ولعلها لم تشأ أن أسكت
 فسألتني : أي نوع من النساء يلائم ذوقك ؟

قلت : بين الثامنة عشرة والعشرين من عمرهن الغض ،
 الفتيات الجاححات اللواتي يشابهن وجه الحررة ، ذوات
 الشفاه المليئة الناعمة والقُدود الفارهة الرشيقة والأكتاف
 المرتفعة . . .

— حسن ولكن من الناحية الأخلاقية ؟

— إننى لا أقول إنى لا أستحسن النساء اللواتى يعرفن
 كيف يحرضن على سعادة الزوج ، ويدخلن البهجة والهناءة
 على قلب الرجل ، الأنبيقات اللواتى لا تفارق الابتسامة
 ثغورهن ، الهادئات الأعصاب غير المقطبات الوجه ، اللواتى
 يتأنقن ويرقصن أو يغنين من حين لآخر ، أما اللواتى يكن
 كالأسماك اليابانية ، أو الأكواخ الصينية ، أو كطيور
 النحل ، وغير ذلك من هذه الدمى والألاعيب التى تعتبر
 زينة وترفاً فتبدو العناية بهن وبزريتهن مضنية ، كما أن
 الفائدة المرتجاة منهن لا توازى الجهد المبذول فى سبيلهن .
 — إذن فى أى زمرة من النساء تضعينى ؟

— الآن لست بواحدة ممن ذكرت ، فاسمحنى لى بوقت
 كاف ، لأختبرك جيداً ، فعندما أتعرف إليك سأقول رأى ،
 ذات يوم ، بكثير من الصراحة ، فأنا وإن كنت رجلاً بطيء
 الاندفاع والتبجح ، فليس معنى هذا أن قلبى قد خمدت حرارته
 حتى أخفى ما يخالجنى من شعور .

مررنا بعيداً عن القرى اليزيدية فى ممرات ضيقة ، إذ
 كانت زليخا تأبى لإزعاج القرويات اللواتى كان من عادتهن

كلما شاهدناها أن يرتمين على أقدامها ويقبلن كعب حذاءها . . .
ارتفعنا كثيراً فوق الجبل إلى أن أحاطت بنا الغيوم من
كل جانب وحجبت عنا مناظر الأرض فصرنا نظن أنفسنا
صاعدين إلى السماء ، وكأن الخيل تطأ بأقدامها رغاء الغيوم
وتسيح فيها سباحاً تلتذ به الأعين . . .

• • •

ثم عدنا إلى الحصن فأصدرت زليخا بعض الأوامر إلى
رجالها ، وأحسست على إثرها بجلبة وحركة طفيفة ، ثم بعد
تمتات وروحات وجيئات أتوها بفتح كبير يحملونه باحترام زائد .
قالت زليخا : سأريك الودائع المقدسة . إنها لم تجمع إلا
بعد صعوبات جمّة .

وهبطنا درجاً منتصباً أمام أحد أبواب « الصالون » المفتوح
على الدهليز . وفي نهاية الدرج باب من الخشب مغطى بنجوم
من حديد . وكان الباب موصداً بقفل كبير ، ففتحت زليخا
بالمفتاح المقدس الذي كانت تحمله .

ولما صرنا داخل المتحف كان أول شيء وقع عليه ناظرى
في تلك الغرفة الواسعة شمعات طويلة مشتعلة قائمة فوق شمعدانات
مزخرفة ، وفي وسط الحجرة علم حوله شمعدانات صغيرة
تحيط به من كل جانب ، وفي أعلى السقف مبخرة مزخرفة

ترسل أمواج البخور . وبذا كانت القاعة كثيرة الشبه بمقبرة
أو كنيسة أو دير ، أمعنت النظر فرأيت في أعلى العلم تمثالا
على هيئة الطير لم أشك في أنه من الذهب ، إلا أنه صنع
صانع جاهل لا يخفى جهله على أعين الناظرين فقد أراد أن
يجعله شبيهاً بالطاووس فلم يوفق فجاء تمثاله ممسوخاً .

أما العلم فكان من الحرير ، مطرزاً بخيوط من القصب .
والغريب أن أمام هذا الرمز المقدس سريراً نحاسياً صغيراً
ومطرقة مدقة (هاون) ، ولكن الأغرب من ذلك كله ، والذي
لم أشعر به لأول وهلة ، وكان يزيد الغرفة رهبة هو تلك الأجواخ
السوداء التي تغطي الجدران .

التفت ونظرت إلى زليخا فرأيتها قد لوت رأسها قليلا ،
وربطت يديها ووجعت لا تبدي حراكاً . وكان نور الشمع
يلمع بين الفينة والفينة ويتلاعب به الهواء فترسم على وجه
زليخا رسوم هير وغليفية تزيد ذلك الوجه غموضاً وإبهاماً .

شعرت بأني أنظر إليها فلفتت نحوي عينيها الجميلتين ،
وقرأت فيهما إحساساً عميقاً وحناناً وشفقة . ثم اقتربت منها
وطوقت خصرها النحيل فشعرت بخصرها يترأخي شيئاً فشيئاً
ويزداد ثقله على ذراعي حتى اضطرت إلى مضاعفة المقاومة .
وخلت أن الطاووس الذهبي المطل علينا من أعلى اللواء اليزيدي

سيرسل في تلك الآونة صيحة وجلبة تملآن المتحف
 جعلت ذراعي اليسرى تحت ركبتيها ، فأصبحت زليخا فوق
 يدي مضمومة إلى صدري ، ثم سرت بها قاصداً الدرج ،
 ولما صعدت بها بضع درجات ، وخرجت من تلك الظلمة إلى
 مكان منير طبعت على جبينها الناصع البياض قبلة ثم أنزلتها
 إلى الأرض . فقالت لي وكأنها تصحو بعد إغماء : شكراً إن
 رائحة البخور ودخان الشموع قد أثقلا رأسي .

• • •

تناولت طعام الغداء وتمددت فوق سريري مسترسلا في
 تفكيرى وتخيلي فرأيت الباب يفتح بتؤدة دون أن يترك ، وكان
 الداخل هو الشيخ شمعون ، نظرت إليه فإذا عيناه كعادتهما
 شاخصتان بالأرض ، ويدها فوق سرتي ووجهه شاحب ، غير
 أنني لحظت فيه لأول مرة شدة الجمود والتقطيب وانعدام الحركة
 والروح فهل غفوت كثيراً قبل دخوله أو غفوت قليلا .
 ذلك ما لم أستطع أن أتأكد به بالضبط ، وكان في الغرفة نور
 لا يشبه غبش المساء ولا سفور الصباح ، بل كان نوراً عجيباً
 يقطع كل رغبة في التكلم أو الحركة !

تقدم شمعون وجلس ساكناً أمامي على الأريكة المقابلة ،
 فخلته يجلس فوق صدري ويزهقني بثقله ، ثم لفت إلى

نظره فرأيت لأول مرة عينيه . لا بد أن هذا الرجل به شيء . . .
 به تغيير أو نية سيئة . كنت أقول ذلك في نفسي ، فإن جيئته
 الآن ليست ودية ، وأعلم أن المسدس في جيبى الخلفى غير
 أن الانحلال الذى أصابنى على إثر ذلك معنى من رفع
 يدي . . .

— أتيت لأكلمكم !

هل قال شمعون ذلك ؟ إننى أشك ! إنه يفتح فاه ولم
 ينبس ببنت شفه ! إخالنى أفهم ما يدور فى ذهنه من الأفكار ،
 وقد أخذت تجول آنئذ فى خاطرى تلك الريبة التى شعرت
 بها منذ اللحظة الأولى التى التقيت به فيها . وفجأة سمعت
 شمعون يقول : لقد آن الأوان لتعلموا الحقيقة والواقع ، كفى ،
 يجب أن نسدل الستار على هذه الرواية المختمرة فى مخيلة
 زيلى . . . إن كل ما أطلعتكم عليه وأخبرتكم به من تأسيس
 وطن قوى لليزيديين ، أو كونها بنت يزيد ، أو قصة الأمير
 على ، كل ذلك محض أوهام وتصورات لا تمت إلى الحقيقة
 بصلة . إن زيلى مجنونة فاقدة الشعور !

لم أعد أستطيع أن أبدى حراكاً ، وقد أصبحت فى شبه
 إغماء ، وهو لا يزال يتابع حديثه : وأنا لست الشيخ شمعون ،
 والسنينور الفونسو لم يمت وهو أمامكم حتى يرزق !

— إذا أنت والدها ؟ !

إن الصوت الذي كنت أجيب به الشيخ شمعون لم أكن
أسمعه أنا ، ولعلني لم أسأل هذا السؤال فكأن في ضوء
الغرفة قوة خفية تذيب الأصوات وتقطع الحركات .
— كلا ! لست أباه . . . أنا زوجها !

جفّ حلقى وخفت صوتى وانقطعت أنفاسى وشعرت بضيق في
صدرى . . . وخلصت أن شمعون يهزأ بي ، فاعترتني الرجفة وقلت
في نفسي : ليتني قوى فأستطيع أن أزيل تلك النظرات الخيفة
والعبوس من وجهه أو أحو ذلك الوجه من الوجود !

— إن جنون زبلى ذو صبغة دينية ، فقد حدث أن وقع
بيدها كتاب يبحث عن اليزيدية جعلها تتصور نفسها « بنت
يزيد » ، ومن مذهب اليزيديين . وقد التزمت حيالها جانب
الموافقة والاستحسان ، فدار في خلدتها أنها يجب أن تكون
بحق من سلالة اليزيديين ، وصورت لها مخيلتها ما في ذلك
من الفخفخة وأبهة السلطان والجاه ، فكنت أشاطرها الرأي
والتفكير ، وأشايها وأماشيا في خيالاتها وأوهامها ، وأسير طوع
شعورها المريض ، فهما تطلب ومهما أرادت وافقها عليه .
وصرت بذلك خادمها بعد أن كنت زوجها . وتعلمنا اللغة
الكرديّة ، وابتعنا قصوراً في البلاد الأجنبية ، واستأجرنا رجالاً

وخدماءً ، وهكذا فأنا أخدع وأتخدع في آن واحد !
 شعرت بحاجة قوية للتكلم بعد أن كنت لا أستطيع أن
 أتفوه بأية كلمة ، وكان تحديتي بوجه ذلك الشيخ مع انتصابي
 في مكاني وتنبه حواسي يجعلني أكثر مقدرة على الكلام من
 ذي قبل ، فقلت : لم لم تطلعونني على ذلك من قبل ؟

— كى تتخدع زيلي وتشعر بصحة تصوراتها . . .

— وما الذي يجب أن أصنع الآن ؟

— ستداوم على متابعة الخداع . . .

— إذن لم تحدثني الآن بهذا الحديث ؟

— لأنني أيقنت أنك لن تستطيع أن تتركها .

وأحسست بجو الغرفة يزداد ظلاماً وحلقة ، وبنفسي في
 حالة بين الحزن والفرح ، وبأنني أريد أن أصرخ : « أواه
 يا زيلي ! مسكينة مسكينة أنت يا زيلي ! » وشعرت بحاجتي
 إلى أن أبكي وألطم خدي ، لكن عيني قد جفنا واعتري
 رأسي صداع شديد واضطربت لهول الصدمة اضطراباً كاد
 يغيبني عن الوجود .

نهض شمعون . . . ها هو ذا شبهه يقترب مني . . .

ها هو ذا قد استطال وعظم ونحل جسمه وثقل . . . أصبحت
 تحت وطأة جسمه ، ولا سبيل إلى التملص منه إلا أن أقف

وأرمى به إلى الأرض ، وفجأة اندفعت صائحاً : زيلي !
 زيلي !

وفي تلك الظلمة الخالكة التي أخذت تتكاثف حولي
 لم أر سوى نفسي ، ووجدتني وحيداً في غرفتي عند ما زال
 ذلك الكابوس المخيف عني ! عندئذ شعرت بفرح زائد
 لا يوصف لدى رؤيتي شكل الدنيا الحقيقي ، ونهضت من
 السرير وقذفت بنفسى إلى خارج الغرفة أبحث عن زليخا من
 جديد لأزيل صورة زيلي المجنونة من ذهني ، وأبحث عن الشيخ
 شمعون لأزيل صورة السنيور الفونسو . . . وها أنذا أركض
 في البهو غير مبال بالعرق الذي يتصبب من جبيني ولا ببركبتى
 اللتين كانتا ترتجفان . . .

كان الشيخ شمعون أول من رأيت ، فأشار كعادته بأدب
 وسكون إلى كرسي طويل كانت زليخا متمددة عليه ،
 مستسلمة لنوم عميق ، وقد سقطت الجريدة التي كانت تقرأها
 عن ركبتهما وافتر ثغرها عن ابتسامة لطيفة وهي نائمة .
 التفت فرأيت شمعون يتعد في البهو بخطوات خفيفة واسعة
 لا يسمع لها صوت !

لا أدري هل أنسى تلك الساعات السعيدة التي قضيتها
 في التزهات على ظهر الخيل وفي الصيد ، وفي العودة من هذه
 التزهات ومشاهدة أضواء القصر من بعيد؟ ! بل لا أدري
 هل أنسى لذة جلوسنا حول مائدة واحدة لشرب الشاي؟ !
 إن ذكرى زليخا لن تفارقني أبداً !

ولكن تلك الأيام لا تفتأ تتناقص ، ولم يبق منها إلا القليل ،
 إذ بعد شهر واحد سيكون بيننا افتراق أبدي ، وهأنذا أتصور
 نفسي منذ الآن عائداً إلى قريتي في تلك الطرق الصحراوية
 التي كنت قطعها مع زليخا ، فكيف أستطيع أن أتحمل تلك
 الصدمة العنيفة التي أحسب لها منذ الآن ألف حساب .

وكنت قد ألمعت لرفاقى في رسائلى عن مشروع إنشاء
 وطن قوى لليزيديين ، فمنهم من لم يجب ومنهم من أجاب ،
 فتحدث عن قضايا أسرع وأحدث . وقد جاءنى في كتاب
 أحدهم التهمم الآتى : « وأنت كما أرى تريد أن تكون لورد

بلفور لليزيديين ! « الحق كل الحق معهم ! إنهم يجهلون
 زليخا ، ولو كنت أنا مكانهم لأجبت الإجابة نفسها .

والتقيت صباحاً بزليخا فبادرتني بقولها : هل تعلم أنني
 أود الرجوع اليوم عند الظهر إلى القصر ؟ . . . أتفكر في
 طعام في البرية ؟ في هذه الضواحي القريبة بين أشجار النخيل
 نتناول طعام الغداء على مائدة المختار ، فهو نبيل وكرم وبيته
 رحب وقد أرسلنا إلى القرية من يخبره بقدمونا . وكان الجو قد
 تحسن وانقشعت الغيوم وسكنت الرياح وبدأت زرقعة السماء
 صافية . . . فاستبشرت خيراً لأنني لا أحب الرياح في البراري
 ولا الأنواء المغيمة التي تظهر الطبيعة كأنها في حرب فتصطدم
 السحب بالجبال وتهب الجبال لتمزقها وينشب بين الأشجار
 وأغصانها وأوراقها مشاجرة عنيفة ويتدافع الضوء والظل
 كديكين أحدهما أبيض والآخر أسود وقد انتصبا للبراز ،
 فحيثما نظرت في السماء أو في الأرض رأيت صراعاً هائلاً في
 الطبيعة . . . وأما إذا هدأت الرياح فإن الطبيعة تصبح كأنها
 جميلة ، حبيبة ، مفكرة ، شديدة الشبه بمن أصابه الندم ،
 في حادثة أو خطيئة ارتكبها !

لم يستقبلنا سكان القرية لكنهم أطلوا علينا من شرفات
 منازلهم ، وقد علمت بعد ذلك أنهم قد أمروا أن لا يقوموا بأى

تشریفات نحونا ، اعترتني الدهشة لدى دخولي أول غرفة من
غرف دار المختار ، فقد كان يملأ الزاوية الرئيسية من تلك
الغرفة سرير أسود اللون مرتفع القوائم ، فوقه غطاء حريري
مزرکش أحمر ولحاف من الأطلس ، وأصناف من الزينة
تظهر السرير كأنه مرقد ولي أو نبي كريم !

وبدا ذوق أهل البيت وظرفهم لأول وهلة في عدم فسحهم
المجال للعجائز بالاختلاط بنا وبجالستنا ، فكانت اللواتي أتين
لاستقبالنا والاحتفاء بنا كلهن شابات صبيحات الوجه ،
نحيفات الحصر ، مدورات الوجوه ، يسبين العقول أما
سيدة البيت فقد كانت في غنى عن استعمال أدوات الزينة
وقد لفت نظري رجلاها الجميلتان اللتان كانتا داخل خفين
بكعبين طويلين . وبينما أنا أنعم النظر فيهما إذا بها تخاطبني
قائلة : « نحن لسنا كالقرويين الذين تعرفونهم ، نحن قرييون
منكم » . فخطر لي أن زليخا لو لم تكن هاجرت إلى الأرجنتين
لما كانت اليوم إلا واحدة من أولئك الفتيات ، تعيش في ناحية
من نواحي جبل سنجار ، وتترى بزيهن وتسير سيرتهن .

التفت إليها فرأيتهما تبحث في الغرفة عن مكان تتمدد فيه لتزيل
عن نفسها تعب السير وعناء التنقل فلا تجده ، وتتحدث باللغة
الكردية وهي جالسة جلسة غريبة مما يدعو إلى الدهشة والاستغراب ،

لكننى ما زلت متأثراً بفكرتى السابقة أتصور زليخا كإحدى هؤلاء القرويات ، ترتدى سروالا من الأطلس وحزاماً من الخمل وترسل شعرها على شكل ضفيرتين فوق ظهرها. وكنا نجلس على كراسى مرتفعة نصغى إلى أصوات الديكة التى تتصاعد من قريب ومن بعيد فنشعر بنشوة وسرور وسط ذلك الهدوء . ولم يكن لكلينا رغبة فى التحدث إلى صاحبه . . . إلا بعض النظرات التى كنا نبادلها بسكوت تام ، فنقوم مقام أجلى العبارات وأحر التهديدات وأصدق المراسلات والاعترافات ، نحن نتلاقى بأعيننا ونتكلم بهما ونتحاب !

وبدا لصاحب البيت أن يحدثنا فقال سائلا : هل تتناولون شيئاً من المشروبات قبل الطعام ؟ !

خشيت أن يأتينا بعرق عكر مشوب بصدأ الصفائح وكسارات الشمع ، فأجبتة إن لدى شيئاً من الكونياك سأشربه . غير أنه غاب لحظة وعاد يحمل زجاجة محتومة من « الوسكى » . ولعبت الخمر بنا ، وتشعبت الأحاديث بيننا ، وتزاحمت فى رأسى الخواطر والصور ، وأنا لا أكاد أحوّل بصرى عن زليخا !

وشرعوا يعدون الطعام ، فإذا بقصعة من الثريد عليها ديك هندى محمر يحملها اثنان ويضعانها فوق منضدة قليلة الارتفاع ،

ثم صفت حولها صحون صغيرة فيها أصناف المأكولات .
 ثم شعبنا ، فنهضنا من حول تلك المائدة التي قامت
 بإحضارها ست يزيديات كن حولنا كالعذارى اللواتي ينذرن
 للدين في معابد الهند ، وكانت سحائب دخان السجائر
 الإنكليزية تملأ سماء الغرفة وتعطيها جواً كجوا «البارات»
 الأوروبية !

ثم خرجنا من بيت المختار مودعين وامتطينا الجياد ونحن
 بهذه النشوة والسرور ، وكان الفرسان الذين رافقونا في الحجىء
 قد فهموا أننا نفضل سيرهم بعيدين عنا فتخلفوا قليلا وسرنا
 جنباً إلى جنب وأمامنا الشمس تستعد للغروب وراء الأفق .
 وفجأة خطرتلى خاطر أفسد على صفوى وأطار نشوتى ،
 فقد شعرت عندئذ برغبة فى الإفصاح عن مكنون فؤادى ومكتوم
 رغباتى ، وكان الليل يقترب ويبعث فى النفوس لوعة وأسى ،
 نحن فى ساعة تذكر الإنسان بذنوبه وتشعره بحاجته إلى الاعتراف
 والإيمان وتحكيم الوجدان . ولكننى لم أكن كذلك منذ هنيهة ،
 فقد كنت متصائباً أريد أن أنتشل زليخا من على ظهر حصانها
 وأتناولها بين ساعدى وأطير بها ، وكنت أتصورها ملتفة على عنق
 ملصقة شفتيها بشفتى وصدرها بصدرى أجوب بها فى الفضاء
 وأتصور مشهد فرار عاشقين وهما على هذه الحالة ، أما الآن

فقد عدت إلى صوابي وانمحت من مخيلتي تلك الصور السطحية
وأصبحت في حالة خشوع وخضوع ، وقلت : لدى ما أود
أن أقوله لك .

— لا حاجة . . . إنني أعلمه !

وصفقت بسوطها في الفضاء ، وشعرت بفخذها يلامس
فخذى في أثناء المرور ، ثم فجأة غمزت جوادها بطرف
رجلها واستعجلته فغدا يعدو مسرعاً ؛ وتبعها ، فلما أصبحت
على مقربة منها لفتت رأسها وبوجه منقبض وطهجة آمرة قالت :
اسكت . لا أريد أن أسمع .

فسكت وسرنا صامتين مطرقين برؤوسنا إلى الأرض تتعثر
بنا الجياد وهي سائرة ببطء كجباب من جباة المالية يرافقه
دركى في أثناء عودتهما من إحدى القرى . . .

استمرت نزهاتي مع زليخا على ظهر الخيل بعد تلك
الحادثة وصرت أشعر بالطلاقة والانشراح كلما أتيت لى أن
أنفرد بها وأجلس أمامها وجهاً لوجه وأبادلها الأحاديث وأمازحها

وأجاملها . إن تلك اللذة التي كنت أشعر بها في المحاملات
 والمحادثات والأخذ والرد في حياتي اليومية ، تلك اللذة التي
 اختفت عني وغابت منذ أمد بعيد ، أحسست بها اليوم تعود
 إلى شيئاً فشيئاً كلما اجتمعت ببنت يزيد ، لقد غدونا
 صديقين متحابين نتمازح ونتنادر ونتشاكى الهموم ، ونتحاب
 بلا ريب ! نشعر بطول البعاد كلما افترقنا فتحلق هي حجة
 تافهة لتبحث عني وتجذني وأنا أركض إليها ! أشعر بميل
 شديد إلى زليخا لا يرتوى ولا يمكن ربه .

وبعد أن أكون ، قد قضيت ساعات طويلة بقربها أنظر
 إلى وجهها وأتمثل في عينيها طهارة الحب وصفاء المودة ، أركن
 إلى غرفتي فأقبع فيها وحدي بضع دقائق ، أشعر على إثرها
 برغبة ملحة وشوق متجدد للاجتماع بها ، وتثور في جسمي ،
 عاطفة لا أفهم منها سوى الشعور بميل شديد إلى زليخا ،
 إن هذا الجوع الذي أحسه في نفسي لشبيهه باضطراب مدمن
 على الخمر - لكنه اضطراب ماكر خداع !!

وهكذا كانت الأيام تمضي سراعاً ونحن منفردان في
 ذلك الجبل المرتفع لا عمل لنا ولا تسلية ، وكأن أوراق التقويم
 السنوي لم تكن تنتزع مرة في كل يوم بل مرة في كل ساعة .
 وسيأتي يوم لا بد لي فيه من اتخاذ قرار حاسم وموقف

صريح . . . ولو أنها لم تسكنني في أثناء عودتنا من تناول الغداء في القرية لكنت غيرت منذ زمن بعيد مجرى حياتي معها . قبعت في غرفتي داخل تلك القلعة واستسلمت لنفسي وعواظي وشعوري وأخذت أحلل وضعي الوخيم الذي سأؤول إليه لا محالة ، وأبحث عن طريقة أسلكها للخروج من ذلك المأذق ، وأدخن سجائري تباعاً ، وكان الجو خارج الغرفة ملبداً بالغيوم ، وشعرت كأن هذه العاصفة التي شبت منذ هنيهة في السماء والأرض قد أيقظتني من نوم لذيذ ! كنت أرى فيه حلماً مضطرباً ، وفي ذهني ميل إلى إهمال هذه الأفكار ، وفي جسمي رغبة إلى التمدد والاستراحة من عناء هذا التفكير المتواصل !

لقد كان على أن أقول لزيخا - منذ اليوم الأول الذي تعرفت فيه إليها : كلا ، إن مشروعك محض خيال وأوهام ، فلا يمكن أن نتصور دولة تقدم على مشروع عقيم مضطرب كهذا ، وعلينا إذن أن لا نخدع بعضنا وأن نتفارق .

كنت مصمماً على أن أقول لها ذلك في تدمر ومن ثم أعود ، ولكنني لم أستطع ، ولو قلت ذلك لما توصلت إلى اكتشاف تلك الأسرار ، ودراسة تلك العقائد ، ورؤية « بنت يزيد » الفاتنة ترتع بخيلاء بين ذويها وأقاربها وأبناء

عشيرتها ، ولما رأيت الشيخ شمعون ، ولا مررت بتلك الصحارى
القاحلة الشاسعة ، ولا دخلت ذلك القصر الفخم . نعم ،
لو كنت عدت من تلك الساعة لما رأيت كل ذلك .

لم أكن أصدق أنى حى أعيش ، فكأننى بين الحياة
والموت أمر فى دهليز ضيق وأسعى لأتمم ما كتبته الأقدار على
جبينى ، وبعد ذلك فإما نور غير متناه وإما ظلمة حالكة
دامسة ، ولعل أصغر حركة أو أقل إشارة تبدر منى كانت
تكفى لتهزم زليخا وتبعدها عنى . . . ثم أفكر ملياً فأرى أن
تغييراً عظيماً طرأ على عاداتها وطبائعها ، فقد امتزجت كل
الامتزاج بأهل القصر وزالت الكلفة بينها وبينهم ، وعدت
لا ترى أى مانع من مقابلتهم صباح كل يوم فى الطابق
الأسفل من القصر بدون سابق ميعاد ولا استئذان . . . ثم
أخذت تشعر بملل من هذه الحياة فكنت أسمع باب غرفتى
يطرق من آن إلى آخر ، وإذا بها تدخل وتتخذ مكانها أمامى ،
ثم تسترسل فى كلام فارغ لا ينتهى ، ومحادثة تم عن شوق
زائد ، ورغبة مضطربة تدل على حب عميق تأصل فى نفسها ،
ولولا ذلك لما اتخذت المداعبة واسطة لإطالة المقابلات
والمحادثات بينى وبينها ، كان ذلك يظهر لى جلياً فى عينها
كلما نهضت مودعة ، إذ ألحظ فيهما ظلاً خفيفاً لم تكن لتستطيع

إخفائه ، فأهجم على الكرسي الذى كانت تجلس عليه
وأضمه إلى صدرى صائحاً : « إنها تودنى ، إنها تحببى ،
إنها تريدنى ! »

وأخيراً عرض لها ما قلب أعمالها رأساً على عقب ، فبينما
كانت صلاتنا الغرامية تتحكم شيئاً فشيئاً وتبدو فى حركاتنا
وسكناتنا ، وإن أخفيناها فى كلماتنا ، كانت الأقدار تنصب
لنا شباكها بمقصها الحاد لتقطع كل صلة بيننا ، فقد أعلمنا
أحد أصدقائنا من الموصل أن السلطنة الإنكليزية قد أخذت
تشبه بنا ، وذات يوم رأينا ضابطاً مفتشاً من رجال التحرى يرتدى
ثياباً مدنية يدخل القصر .

لم أجد الاختفاء عن الأنظار موافقاً ، بل تناولنا طعام الغداء
معاً ، ولما حان وقت الافتراق ، اقتحم الضابط البريطانى غرفتى
وسألنى عما إذا كنت سأتحمل مشقة السفر إلى الموصل لإتمام معاملة
السفر فى نهاية الأسبوع أم لا ؟ فهمت حالاً أن لديهم الأخبار
المكتومة وأنه يحتمل كثيراً إخراجى من البلاد بعد أسبوع
واحد ، عندئذ أخذ الشك فى الشيخ شمعون يملأ نفسى .
ولكن ما الذى يعصم زليخا من أن يأتها الدور ؟

بعد يومين تنهى المهلة فلما أن أذهب إلى الموصل وإما

أن أعود إلى سوريا . . . ولكنني أرجح الثانية . كان البرق يلمع في أرجاء غرفتي من حين لآخر فينيرها . ارتديت قبائي وتناولت شمعداناً مضيئاً بيدي وسرت في الدهليز هائماً على وجهي والبرق يلمع فيخطف عيني ، ولم أعد أبصر شيئاً أمامي ، ولما صرت في منتصف الدهليز أبصرت شمعداناً آخر في البهو المقابل يحاول الوصول إلى ، فظننته لأول وهلة صورة معكوسة لي . . . ولكنني تبينت تحت تأثير البرق المتتابع أنها زليخا ! . . . وقد لحظتني هي الأخرى . ثم فجأة أخذ الشمعدان ينسحب بتؤدة ويتوارى . . . لقد دخلت غرفتها ، عندئذ أطفأت شمعتي ووضعت الشمعدان على الأرض وهزلت مسرعاً نحوها ، فتقابلنا إثر ضوضاء بسيطة ثم قالت : النوم غير ممكن . فقلت : فلنسهر ! فقالت : ولا مجال للكلام . فقلت : فلنسكت !

ف نظرت إلى وفي عينيها ما معناه : « إذن ماذا نفعل » فقلت : « لنقف جنباً إلى جنب ، أو أجلس بأدب فأشاهد لمعان البرق في وجهك ولا نثرثر أبداً ، إن عاصفة كهذه لا تدع محبين بعيدين عن بعضهما في غرفتين نائيتين ، واجتماعنا يهدئ أعصابنا .

نحن الآن في عتبة غرفتها وهي واجهة لا تبدى حراكاً ولا تقرر شيئاً فخطر لي أن أدفعها إلى داخل الغرفة ، فدفعتها

بلطف من كتفها فأحست أنا ملي بنعومة اللحم العارى تحت
الثوب الحريرى الرقيق الشفاف الذى كانت ترتديه . ثم قالت :
ادخل !

لم تكن غرفتها تختلف عن غرفتى من حيث الشكل والأثاث
إلا بوجود منضدة مدورة للزينة فى إحدى زواياها ، أما
هواؤها فكان عبقاً برائحة الشب العطرى المندى . وفى السرير
كانت الوسائد مبعثرة والأغطية متداخلة وملقاة هنا وهناك تدل
على أن زليخا لم تجد إلى النوم سبيلا أو لم يجد النوم إليها
سبيلا وأنها قضت الليل بالتقلب والتلوى ، ولم تتمكن من
الإغفاء ، ولا شك فى أننى عند ما رأيتها منذ هنيهة فى الدهليز
تحت لمان البرق كانت تقدر لقائى .

ألقت بنفسها فوق إحدى الأرائك ، وكان البرق لا يزال
يلمع بدون انقطاع ، والمطر يهطل والرعد يقصف ، ظللت
واقفاً أمامها منتصباً وهى صامتة تفكر ، وأنا أنظر إليها ، ثم
أخذت العاصفة تهدأ شيئاً فشيئاً والضوضاء تخف قليلا
قليلاً ، فإذا بها ترفع رأسها وترمقنى بنظرة فاحصة من رأسى
إلى قدمى وتقول : يمكنك أن تقول لى ماذا أحضرك ؟ فإننى أنتظر
ذلك منذ عودتنا من تناول الغداء فى القرية ، لقد كنت هادئاً
مرحاً محافظاً على رزانتك لدرجة تكفى للدلالة على غايتك

ومقاصدك ، فهل تود الرحيل ؟ أليس كذلك ؟

تلفظت للمرة الأولى باسمها فقلت : زليخا ! وجلست
قرب موضع رجلها على البساط .

فقلت : إننى مصغية !

— زيلي ! هل تعلمين كيف يعرف الفيلسوف لبينتز
الحب ؟ إنه يقول : الحب هو تذوق سعادة المحبوب ، وأن
يجعل المحب غايته الحقيقية إسعاد المحبوب ، إننى أحبك ذلك
الحب ، فالذى أبغى هو أن أرى سعادتك وأشعر بها لأحس
بسعادتي الشخصية وأريد أن تستفيدى من النعمة التى يسبغها
عليك بحالك وصباك وغناك — تلك النعمة النادرة الوجود ، وعليك
أن تأخذى نصيبك وافراً من الحياة وأن تتجرعى كأسها حتى
الشمالة .

— بماذا توصينى أن أعمل ؟ !

— الأرض ممتدة أمامك بكل ما فيها من بهجة ونضارة ،
فهناك الآن فى هذا الشهر سواحل قائمة فيها الحمامات البحرية
بأمراجها وألعابها ، وهناك فى اليابان قد تفتحت أزهار الكرز
ونسجت فراشات القز حريرها على أشجار التوت ، وعلى
شواطئ الغانج يجرى صيد النمر ، وفى الريفيريا تجول عربات

الكرنفال في الشوارع ، كما بالإمكان مشاهدة بزوغ الشمس
وغروبها فوق جبال سويسرا وقرب بحيراتها ، وفوران المياه
الحارة في جزيرة إسكلندا ، وهناك أيضاً « الصالات »
الغنائية العظيمة التي تستخدم فيها الآن جولات الرقص المختلفة
وتتصاعد الأنغام الموسيقية وتلمع الخلى والمجوهرات لمعان البرق
الذي نشاهده نحن الآن !

— لنذهب إذن معاً !

— وهناك أيضاً حب منتظر . . . حب لائق موافق
سهيز وجودك وروحك ويعصف بك عصفاً ، وهو حب مضمّن
لكنه عذب لذيد !

وأحسست بيد زليخا توضع بلطف فوق رأسي ، وتلامس
أناملها شعري دون أن تؤثر في تنسيقه أو تغير شيئاً من طريقة
ترجيله .

— إن أمثالك من النساء اللواتي لمن خصائص تجعلهن
لائقات بالحب قليلات الأثر والوجود في العالم ، فليدك عدا
معجزة ذلك الجمال الخارق التي تبعث حبك في النفوس إلى
درجة العبادة والحنون جمال روحاني نادر ، وذكاء حاد مدهش ،
وثقافة واسعة عميمة ! إنك على جمال طبيعي وخلق حسن ،
لا بل إنك الجمال والحسن ، وإن أشد الضربات التي تلقيتها

في حياتي ، وربما كانت هي الضربة الأخيرة ، هي بعدي
 عنك ؛ يجب أن تعتقدى بصدق كلامي وإخلاصه وأنت تفكرين
 بذلك .

وأسندت رأسي بهدوء إلى ركبتيها وقلت : ستركينني
 حزينا مغتماً وتغادريني ، وقد ذبلت تلك الزهرة النضرة في
 فؤادي وأظلمت تلك الشمس المشرقة على روحي ، وجف ربيع
 حياتي وسأعيش تائهاً هائماً ، وشعرت وأنا على تلك الحالة
 من الدهول مسنداً رأسي إلى ركبتيها بدمعة صافية راتقة تسقط
 على وجهي سقوط ذلك الرذاذ الذي ما زال ينسكب خارج
 الغرفة وتتحطم فوق خدي وتسيل فتختلط بقمي من أطراف
 شفاهي . لقد شربت دمع زليخا ! . . .

تناولت رأسي بين يديها ولففت وجهي إليها فأصبحت
 عيناها واجتمين في عيني وازداد ذهولي فأصبحت أرى الدنيا
 على ألوان مختلفة وأشكال متنوعة ، وصرت أسمع صوتاً خافتاً
 عميقاً كأنه صادر عن مسافات بعيدة ، لم أسمع مثل هذا
 الصوت من قبل ولم أعرفه ، إنه الصوت الذي كنت سمعته
 من النساء اللواتي يختلجن في حالة الاستسلام . . . إنه نوبة
 هيستيرية :

— لنذهب معاً ، لنذهب معاً !

وضغطت بيديها على رأسي وضمته إلى صدرها فأحسست
باهتزازه واختلاجه كأنها تود إحياء ميت قد فارق الحياة منذ
ساعات

— لنذهب معاً ، لنذهب معاً !

انتابنتي أخيراً حالة نفسية غريبة فأخذت أقبل ركبتيها
وساقها وأشعر بلذة غريبة وشوق متقد .

وكان ذلك الصوت لا يزال يردد : لنذهب معاً ، لنذهب

معاً !

أو لعله لم يكن يردد ذلك ولكني كنت أسمع ، وأسمعه

ما حييت !

من عادتي أن أتشاءم من وداع صديق أو قريب يسافر
في باخرة تقلع مساء ، فإن صورة خيال الباخرة العابس وهي
تشق طريقها في ظلمات البحر اللجج لا تتمحى أبداً من
مخيلتي . أقلعت الباخرة التي ركبها زيلي ، من بيروت ، في
مساء كهذا ، وفي نيتها أن تزور الهند والصين والجزر اليابانية ،
وأن تعرج من هناك على فلبيازيرو عائدة إلى بلادها ، تلك

كانت خطتها في الرحيل ، لكن من يدري كيف ستغير
الصدف مجرى سياحتها ، ففي الباخرة ضباط بحريون شبان .
وإنه لتخطر على بالي رواية كان نشرها الكاتب ميريام هاري
تحت عنوان « جزيرة الشهوة » صور فيها ساحات الغرام في
جزيرة سيلان والليالي البيضاء التي قضها بطلا روايته في أحد
الفنادق ، فتعزيني الغيرة على زيلي وأحترق في صميمي
وأتصورها في مخيلتي لاعبة عابثة لاهية على شواطئ البحار
في الهند والصين وفي مرتفعات الجبال ، لا شك أنها
ستنساني عندما تتجول في البساتين التي تتصاعد منها روائح
الموز والأناناس والقرنفل والبهارات ، وعندما تسبح على البلاجات
الموحشة ! . . . كان كل ذلك يمر أمام مخيلتي بوضوح .

• • •

لتبق الشموع مشتعلة في غرفة قصر يزيد الحجرية التي
تعفى عظم يزيد ، فلعل زليخا تعود يوماً إلى هناك ، ولكنها
ستكون بلا شك قد بلغت سن الخمسين وأشرفت على الهرم
والذبول بعد أن قضت حياة مملوءة بالمفاجآت الغرامية . . . أما
أنا فأكون قد غادرت هذه الدنيا الفانية وتخلصت من آلامها :
ليتني لم أعد تلك الليلة العاصفة إلى غرفتي بعد أن استعطفني
وبكت لي وأصرت على أن نذهب معاً ، وقبلتني من عنقي

وصدرى ! ليتنى لم أغادر فى تلك الليلة المنحوسة ذلك الجسم
 البض ، بل ليتنى التصقت به وشممت روائحه الزكية العاطرة
 ولم أبتعد عنها أبداً ، إذن لصادقتها صداقة عاشق سعيد وقضيت
 قربها بقية حياتى . لو لم يتم ذلك الأمر ، ولو لم انسحب من
 غرفها لكنت اليوم أسير معها جنباً إلى جنب فى منتزهات لبنان
 الجميلة تنتقل من حقل إلى حقل ومن بستان إلى بستان ومن
 حديقة إلى حديقة . . .

ولكن لا ، فلأفرح بأننى سوف لا أرافقها ولا ألقاها ،
 فبدلاً من أن أفرق عنها غداً ، وأشعر بمضض الفراق ، وأكوى
 بنار البعاد ، أرى أنه يحسن أن أقتلع نفسى منها وأبتعد عنها .
 لو رافقتها لصرت أغار عليها من النسيم وأخشى على
 جمالها من نفسى ، ولأصبحت أهتم على وجهى فى الأزقة
 كالعشاق المجانين الذين ورد ذكرهم فى قصة الدهر .

نعم لو كنت قربها لأصبحت عاشقاً مجنوناً !
 يجب ألا أنتهى إلى مثل هذه النهاية ! يجب على أن
 أتخلص منذ الآن !

لقد حضرت زليخا إلى غرفتى فى صباح ليلة العاصفة
 لما علمت أننى أعدت حقائبي وقالت : إذن أنتم ذاهبون ؟
 قالت ذلك بصوت خافت ، فلحظت الظل الخفيف

تحت عينها ورأيت دموعها تنهمر على خدنها الجميل - جمال
 أراه الآن ولن أراه غداً أبداً ، فشعرت أنا الآخر بمقلتي
 تمتلئان بالدموع وأخذت أتحدث إليها عن مخاوفي من الغد
 وهو جسده وآلامه وما سيعتريني من الأمراض والآلام في المستقبل
 وأكدت عليها أن تأخذ نصيبها من الحياة وافرأ . وأفهمتها بلهفة
 متهم يحاول أن يذب عن نفسه التهم ، أن مشروعها السياسي
 وإن لم يمكن تنفيذه في الحاضر نظراً للأحوال السياسية القائمة
 فمن المستحسن إرجاؤه إلى وقت أكثر ملاءمة ومساعدة ،
 وأن عليها أن تمد أهل سنجار بالمال وأن لا تتأخر عنهم
 بمساعداتها المادية ، والمعنوية ما وجدت إلى ذلك سبيلاً .

ثم جاء الرحيل ، فقد أتها الأخبار الأخيرة تفيد أن
 الإنكليز سوف يدعونها هي الأخرى إلى العراق ، وأن قرار
 ذلك سيجرى تنفيذه قريباً .

لم تتغير أوضاع الشيخ شمعون ولا أحواله بل ظل محافظاً
 على هدوئه المعهود وتلقيه الأوامر صاغراً ، إنه سيبقى في سنجار
 ليكون على اتصال دائم بجماعة اليزيديين ويخبر سيدهته على
 الدوام بما يتم لديهم ، كنت إخاله يرشقني بالنار لأنني
 ما رأيت قط داخل عينيه .

اقتربت مني زليخا مودعة وهي في قمرتها على ظهر الباخرة ،

وأسندت رأسها إلى صدرى وشهقت بالبكاء طويلاً ، فشممت
 لآخر مرة رائحة الأعشاب النضرة والزهور العابقة ، ثم سارت
 الباخرة تشق عباب البحر وأنا أنظر إليها من ميناء بيروت
 تبتعد عن الساحل حتى أصبحت فوق خط الأفق شبيهة
 بنملة سوداء !

جلست على ساحل البحر في « كورنيش » بيروت
 الصاحب الذي يعج بالأنوار الكهربائية ، وجلس إلى
 جانبي الشيخ شمعون تحت ظل نخلة على مقعد من المقاعد
 العمومية وأخذنا نتحدث . ثم حانت منى التفاتة إلى صاحبي
 فالتفت هو أيضاً إلىّ ووقع نظري في نظره فرأيت لأول مرة
 عينيه . لقد طالما حسبت هاتين العينين مملوءتان بالفساد
 والحرص واللدائس والشؤم ، فإذا بها بريئتان كعيني الطفل ،
 صافيتان عذبتان ، حلیمتان ، تنظران بروح التوكل والرحمة !
 ثم قلت له : لقد بدر منى نحوك تقصير يا شيخى
 فأرجوك أن تغفو وتصفح !

ولكنه كعادته لم يجب بل ظل ساكناً ، ثم نهضنا . عندئذ
 رأيت قربي شيخاً عجوزاً هرمأً قد قوّست السنون ظهره وحنّت
 جسمه فقلت في نفسي : لا يداخلني أى شك في أن هذا
 الشيخ هو عشيق زليخا الساكت الصابر الوفي ، وأنه سيظل

محافظةً على هذا الحب حتى النفس الأخير !
ثم نظرت إلى نفسي وإليه فإذا بي أرى شيخين قد تقوّس
كتفاهما وانحنى رأساهما إلى الأرض ، يسيران ببطء ، ويسند
أحدهما الآخر ، فخلت أنهما مريضان مخيفان قد انتشلا
من الدنيا !

فنون الأدب العربي

مجموعة حديثة تجلو ألواناً من الفنون الأدبية التي
عاجلها الأدب العربي في مختلف أقطاره وعصوره :

● في الفن الغنائي

الغزل - الرثاء - الهجاء - المديح - الزهد والتصوف -
الوصف - الموشحات - الأزجال - الفخر والحماسة .

● في الفن القصصي

الملحمة - القصة - الحكاية والأقصوصة - المقامة - الترجمة
الشخصية - التراجم والسير - الرحلات .

● في الفن التمثيلي

المسرح - الفاجعة والمأساة - الملهاة .

● في الفن التعليمي

الحكم والنصائح والأمثال - الخطب والمواعظ - منظومات
الشعر - النقد .

ثمان الكتاب ١٢ قرشاً

دارالمعارف

مجموعة الموجز في الأدب العربي وتاريخه

كتاب جديد خرج عن المنهج التقليدي القديم ليقدم إلى طلاب
وأساتذة الجيل الجديد طريقة جديدة صحيحة تجعل دراسة
الأدب وتاريخه شيئاً حياً لذيذاً بدلاً من تلك الدراسات الجافة...

- الجزء الأول : الأدب الجاهلي
- الجزء الثاني : الأدب الإسلامي
- الجزء الثالث : الأدب العباسي
- الجزء الرابع : الأدب الأندلسي
- الجزء الخامس : الأدب المنهاري
- الجزء السادس : عصر النهضة

ثمن الجزء ٣٠ قرشاً

دارالمعارف

نوابغ الفكر العربي

مجموعة وضعت على طريقة علمية حديثة تتناقل دراسة عصر المترجم له ، ثم حياته وأثره في عصره ، ثم عرض لآثاره ومذاهبه ، وفي نهاية كل ذلك نماذج مختارة من آثاره مبنوية بحسب أغراضه ومذاهبه .

صدر منها حتى الآن :

- ١ ابن رشد
- ٢ الجاحظ
- ٣ الشيخ نجيب الحداد
- ٤ محمود سامي البارودي
- ٥ ابن زيدون
- ٦ الشيخ ناصيف اليازجي
- ٧ إخوان الصفا
- ٨ بشار بن برد
- ٩ بديع الزمان الهمداني
- ١٠ أبو الفرج الأصبهاني
- ١١ ابن الرومي
- ١٢ الفرزدق
- ١٣ السهروردي

ثمان الكتاب ١٢,٥ قرشاً

دارالمعارف

روضۃ الطفـل

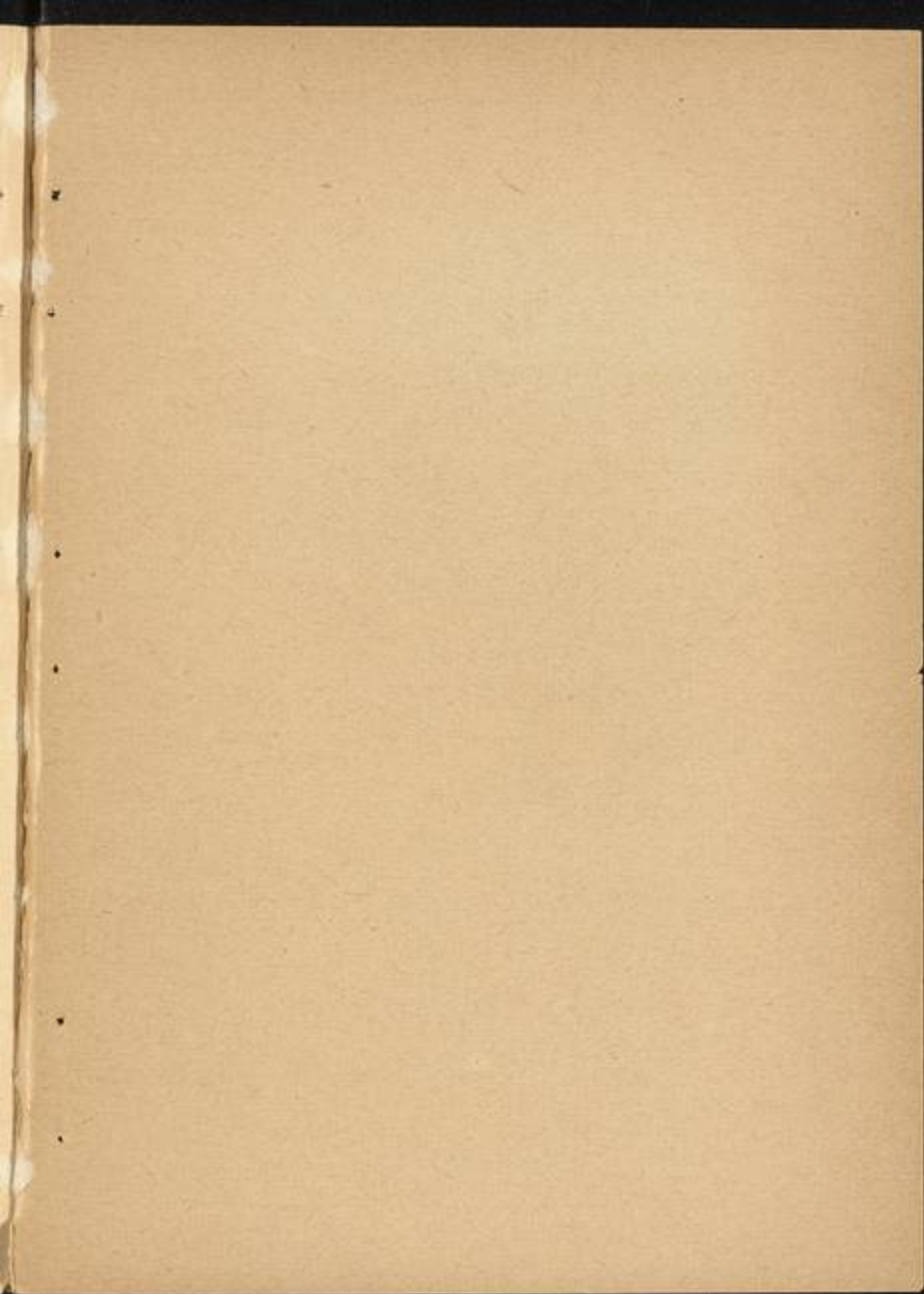


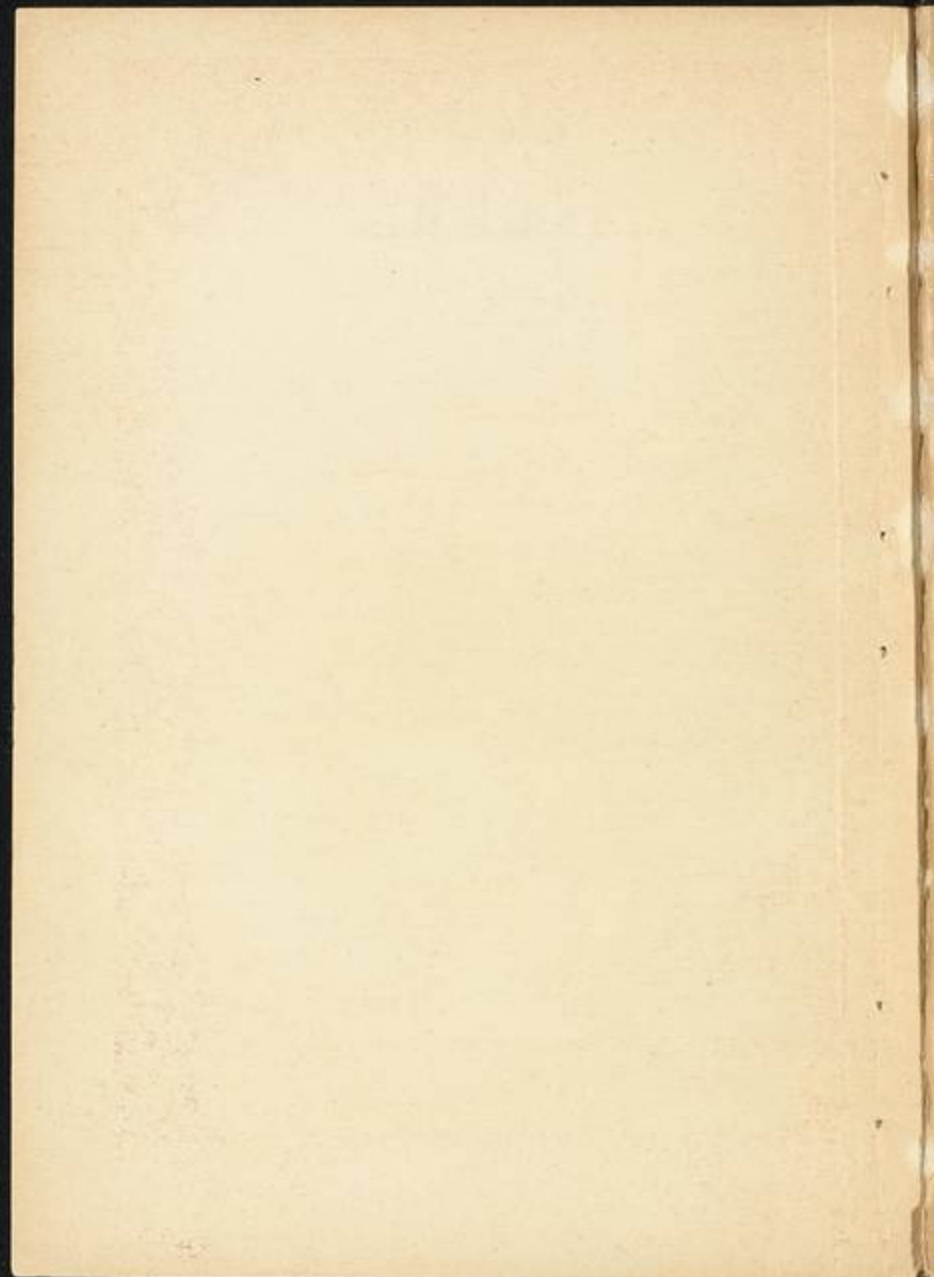
- ١ أرنبو والكنز
- ٢ كتكت المدهش
- ٣ عيد ميلاد فلة
- ٤ فرفر والحرس
- ٥ ذيل الفأر
- ٦ البطة السوداء
- ٧ انتصار فيروزة
- ٨ حسن والذئب
- ٩ حبة القمح
- ١٠ زحلف الشجاع
- ١١ ذكاء سمسة

أول مجموعة من نوعها باللغة العربية يجد
الطفل فيها قصصاً مفيدة مزينة بالصور
المبتكرة ومطبوعة بالألوان الجميلة

تصلرها

دارالمعارف





دار المعارف

تقدم لناشئة العربية
بين السابعة والثانية عشرة من أعمارهم

المكتبة انخضار للأطفال

تحفة جديدة مبتكرة ورائعة
من القصص الخيالية العالمية

• سيعتز بها كل قطر من الأقطار العربية
لا أيضا من نهر للكتاب العربي .

• سيعتز بها كل فتى وفتاة
لا أيضا من سعة جملة لعيزهم وقلوبهم .

• سيعتز بها كل والد ووالدة
لا تقدر لأطفالهم من نخل صالح لتقرؤهم ونفوسهم .

• سيعتز بها رجال التربية والتعليم
لا يفر من وسيلة طيبة لتبليغ الكتاب العربي إلى الناشئة
وتوجيههم إلى طريق المعرفة والخير والحلم ...

صدر منها:

- | | |
|-------------------|-----------------------|
| ١ . أطفال القابض | ٤ . القمامة العمياء |
| ٢ . سندريلا | ٥ . الجماعات المتوحشة |
| ٣ . السلطان السمر | |

ثمن النسخة بتلاف ١٥ قرشا - مجلدة بكرتون ٢٠ قرشا

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library



32101 075615136

PL248

.K3778

Y495124

1955

NEC